

دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي

الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

الأستاذ نذير حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

(تمهيد)

الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، وبعد :

فإن من المسلمات الأولى أن قضية « محمد رسول الله » إحدى القضيتين الكبريين في مقدمة أركان الإسلام ، لدى المسلمين .

وهي المقولة الثانية التي يمسك غير المسلم بمفتاحها ليدخل إلى رحابة الإسلام ونقائه ومسؤولياته .

ولهذا لم يشرف باحث بمعالجة شخصية ، ودراسة أبعادها بمثل ما يشرف بالكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يتسن لحياة زاخرة بالأحداث ، مستفيضة بالمكرمات ، من الاهتمام والبحث والتنويه بمثل ما تسنى لحياة الرسول .

وأن « المكتبة النبوية » — مع تجاوزنا السنة النبوية — لم يكن سواها ليحظى على المستوى الإسلامي والإنساني بنتاج فكري تتزايد مطبوعاته ومخطوطاته يوماً بعد يوم .

إذاً « محمد رسول الله » قضية لها الأولوية في الفكر الإسلامي والإنساني والحضاري ، وتلتمس قواها وخصائصها من اصطفاء الله لرسوله ، وتنامي الإيمان به جيلا بعد جيل .

تلك قضية يفرضها الفكر والقلب معاً لما تتضمنه من مقاييس المنطق ، وأبعاد الإيمان ، ومناحي الكمال النبوي .

ولهذا فلن يكون الفكر الإسلامي في موقف استجداء لمدائح المستشرقين نبوة الرسول كما لن يكون في موقف الضعف والهزيمة تجاه شبهاتهم ومطاعنهم .

ولن يستدر البحث المنهجي عطف مستعرب ليشيد بشمائل الرسول ، كما لن يأبه بجحود منكر منهم ولا طاعن .

ولكن من أهم ما ينبغي أن يطلع عليه المسلم المثقف انطباعات وآراء المستشرقين حول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقف على الحقائق النبوية مجردة من لبسهم وزيفهم حيناً ومشوبة بتحليلاتهم الموضوعية الإيجابية حيناً آخر .

ولعل دراسة « الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين » موضوع هذا الكتاب ، إذ يكشف عن الزيوف والحقائق الاستشراقية ، مما يدفع الشبـــاب المسلم إلى الاتصال بمراجع السيرة النبوية الأصيلة لاستكناه الصورة الحقيقية للشخصية النبوية باستقصاء جوانبها ومناحيها . بل ولعل هذا مما يدعم حصانة ثقافته ودينه من تيارات الأفكار الوافدة المغربة ، ويزوده بأفكار إسلامية ناصعة تنسجم مع حقائق الفكر والتاريخ معاً .

ومن هنا فإن مسؤولية الباحث المسلم أن يجمع الأقوال المتناثرة عن رسول الله في مؤلفات استشراقية كثيرة ، أجنبية ومترجمة ، مؤيدة تارة ومعارضة تارة أخرى ، لتستبين معالم السيرة النبوية أمامه على وجهها الصحيح .

فقد عرضت بعد التعريف بالاستشراق وارتباطاته ، وعمل المستشرقين الفكري في السيرة النبوية ، إلى مواقف المستشرقين الإيجابية والمعتدلة ، ومواقفهم السلبية والمغرضة ، بمنهج المتتبع للآراء والمستنتج للحقائق ، المنوه بما لهم وما عليهم .

وقد اعتمدت في ذلك على الترجمات العربية وهي كثيرة ، وفيها الغناء ، عازياً كل قول إلى صاحبه وناسباً كل ناقل إلى مرجعه ومصدره .

وسوف يطلع القاريء على آراء غريبة لم تنسب إلى مستشرق بعينه بل نسبت إلى زميله أو أستاذه أو تلميذه ، الذي لم يعرف عنه الاستشراق .

كما يطلع على نقول و ردود إسلامية أوردها بعض الباحثين في مؤلفاتهم ، فأخذتها كما هي ، وعهدة نقلها عليه .

ونوعت مصادر البحث من المقالة والرسالة القصيرة في دوائر المعارف إلى الدراسة المستفيضة المطلوبة ، متتبعاً أعمال المستشرقين في الشرق والغرب على السواء .

وليس للباحث المسلم بد بعد أن يقـدم جهداً فكرياً رائداً إلا أن يتلو آيات يثنيها في صلواته ، مستعيناً بالله ومستهدياً صراطه المستقيم فـ « إيّاكَ نعْبدُ وإيّاكَ نسْتعين . اهْدِنـَا الصِّرَاطَ المسْتَقيم . صِرَاطَ الذينَ أنْعَمْتَ عليْهِم غَيْرِ المغْضُوبِ عليْهِم ولا الضَّالّين » .

المؤلف

مدخـــــل عـــام

أولاً : معنى الاستشراق ونشأته.

ثانيًا : مراحل الاستشراق وارتباطاته.

ثالثًا : الاعمال الاستشراقية عن الرسول ﷺ .

مدخل عام

● أولاً ـ معنى الاستشراق ونشأته

حدد المستشرق ميكائيل انجلو جويدي : « العلوم الشرقية أو الاستشراق » في محاضرة له ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة عنوانها « علم الشرق وتاريخ العمران » نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول ١٣٤٧هـ .

يقول : ليس صاحب علم الشرق « أو المستشرق » الجدير بهذا اللقب بالذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف غرائب عادات بعض الشعوب ، بل انه هو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية . هو من تعاطي درس الحضارات القديمة ، ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلا أو في النهضة الحديثة(١) .

وفي فصل : المدارس الاستشراقية : يقول(٢) : وهذه المدارس الاستشراقية تتسم فيما بينها بخصائص عامة مشتركة

---

(١) مصادر الدراسة الادبية : يوسف أسعد داغر : ٢/٧٧١ .

(٢) المصدر السابق .

فهي « علمية مطلقة » مع كل ما للعلم الحديث من مقتضيات وموجبات وروح طُلعَة ، وهي نقدية محللة ، ناخلة ، مغربلة ، تتجلى فيها روح النقد العلمي المقارن دون مراعاة أو محاباة لأي عامل من عوامل الأثرة والغرض . وهي إلى هذا وذاك نموذجية قياسية بمعنى أن الاستشراق يأخذ ببحثه على وجه من منطق العلم وجوه البحث في الطريقة والسياقة والاستطراد والتوسع والعرض والبسط ، بحيث تتضح أمامك المعالم وتستبين الصور ، وهي إلى ذلك كله موسوعية أو جامعية ، بحيث أنه إذا ما تناول مستشرق موضوعاً استفرغ منه المناحي ، واستظهر منه الخوافي فلا يدع فيه مزيداً لمستزيد ، كل هذا إلى وضوح وجلاء ونقاء ونصاعة ، وتتبع ، تستفيض منه الحقائق التاريخية على أنوار كشافة من التتبع المضني والنقد العسير .

و هناك تعريفات أخرى لا تبتعد كثيراً في معانيها وسماتها عن التعريف السابق وتعريفات لاذعة متطرفة لا مجال لذكرها الآن . ومما يلاحظ على التعريف السابق ما يلي :

١ ـــ تعميم الآفاق الثقافية الشرقية التي يتناولها المستشرق سواء كان ذلك متصلا بالعلوم والمعارف التراثية الإسلامية والعربية أم متصلا بالمعارف الشرقية وحضاراتها القديمة من صينية ويابانية ، وفارسية وهندية .

٢ ـــ اختصاص « المستشرق » بهذه المعارف وتفرغه لدراستها وانقطاعه لمعرفة لغاتها وأساطيرها لا يعني أنه قد سلك منهجاً علمياً ، إلا بقدر ما يتخلى عن دوافعه الذاتية و رواسبه الموروثة ، و تجرده للحقيقة الثقافية وحدها .

٣ ـ ان السمات العلمية التحليلية التي طرحها الكاتب على الاستشراق لا تعبر عن أعمال المستشرقين عموماً ، وليست نتيجة لجهودهم المدرسية ، فإن العلمية والموسوعية ، والنموذجية والقياسية والجامعية سمات يندر أن تجمع في بعضهم ، إن لم نقل يستحيل أن تتوفر في أحدهم ، وإن كان ظهر منهم أعلام لهم سمعتهم الثقافية المرموقة .

ومثل ذلك ما جمعه الكاتب من سمات أخرى لهم : كالصفاء والموازنة والنقد والصراحة والمنطق ، فإن من العسير ـ حين تعالج على واقع العلم والنقد ـ أن تحوز عليها وتلتزم بها . ويغلب عليه أن تكون إعجاباً وافتتاناً وانبهاراً أكثر منها دراسة منهجية موضوعية .

نشأة الاستشراق

ومن المسائل التاريخية الشائكة تحديد المرحلة الزمنية لنشأة الاستشراق ويؤرخ بعض الباحثين ذلك بطغيان الأفكار الاستعمارية للعالم العربي والإسلامي ويعدونه مدخلا للقوات الاستعمارية العسكرية وحملاتهم الحربية ـ قبيل القرن التاسع عشر ـ بمعنى أن التغريب الفكري والحضاري لم يسبق الغزو العسكري وحسب وإنما كان المظهر الفكري الذي سهل نفوذه من جهة والتبرير لأعماله والتسويغ لمفاسده من جهة ثانية .

ولكن بعض المشتغلين بآداب اللغة العربية يرون أن الاستشراق بدأ « من القرن السابع عشر » فظهر أول كتاب في (قواعد اللغة العربية) لأربانيوس ليدن سنة ١٦١٣م وطبع كتاب (المجموع

المبارك) في التاريخ (لابن العميد) سنة ١٦٢٥م مع ترجمة لاتينية ونقل القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية وطبع حينذاك . .

وإن أقدم المستشرقين المستعربين (بوكوك) الانكليزي المتوفي سنة ١٦٩١م تلقى العلم في اكسفورد ، ورحل إلى المشرق ، وأقام في سورية مدة . ومن آثاره ، طبع كتاب (مختصر الدول) (لابن العبري) سنة ١٦٦٣م ، مع ترجمة لاتينية ، وترجم رسالة (حي ابن يقظان) إلى اللاتينية ، وكتاب (نظم الجواهر) (لسعيد بن البطريق) طبع في اكسفورد سنة ١٦٥٩م ، وفي دار الكتب المصرية نسخ منه .

وخلفه مستشرق شهير في أواخر القرن السابع عشر هو (دربلو) الذي وضع في تاريخ الشرق وآدابه معجماً سماه : (المكتبة الشرقية) في عدة مجلدات ، وهي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللغة الفرنسية مرتبة حسب حروف الهجاء تبحث في علوم الشرقيين وتاريخهم وخرافاتهم وآدابهم ونظمهم وسائر أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وغيرها . وطبع ثانية سنة١٧٨٣م(١). ويرى باحثون متخصصون أن الاستشراق أقدم من ذلك بكثير ، فقد يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وربما كانت هناك محاولات مروية قبل ذلك . . « وكان أن سبق بعض ملوك أوروبا وباباواتها وأخذوا العربية من علماء الأندلس وصقلية ، وتعلم أمراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام أيام غزواتهم الطويلة ، ولما قام البابوات بإنشاء الرهبنات لبث الدعوة الدينية في الشرق بدا لهم أن يعلموا الرهبان لغاته ، ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٤ـ١٤٦ .

العبرية والسريانية . . فقضى مجمع فينا ١٣١١م برئاسة البابا (اكلنتس) الخامس أن يؤسس في باريز وأكسفورد وبولون . . دروس عربية وعبرانية ليتسنى لهم تدريس الطب في كتب العرب . وفي سنة ١٢٥٤ أنشئت أول مدرسة عربية في إشبيلية من أرض الأندلس (١) .

ويكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة عهد الإصلاح الديني .

وفي كتاب : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار يتابع مؤلفه (٢) القول عن نشأة الاستشراق فيقول :

ولما كان القرن السادس عشر هو مسرح الاصلاح الديني في الغرب كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصالا اقتصادياً سواء في كشف موارد الثروة فيه أو في استغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل تجاري أو في أية صورة أخرى ، حتى وصل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن العشرين إلى مايصل إليه نفوذ قوي على ضعيف . . لهذا فمنذ أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ يعمل على تخلف المسلمين وعلى التنفيس عن الحقد الصليبي .

---

(١) من مقال محمد كردى على ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مج ٢٣ ص ٢٤٧

(٢) الدكتور محمد البهى فى رسالة المبشرون والمستشرقون ص ١١ كذلك مقال الدكتور مصطفى السباعى : مع المستشرقين وجها لوجه .

• ثانيًا – مراحل الاستشراق وارتباطاته

والاستشراق في مراحله جميعها قد ارتبط بمؤسسات تبشيرية وأغراض استعمارية ومسؤوليات دولية أجنبية لم تخف على أحد من الباحثين المتتبعين .

وهو عامل مع الكنيسة أو عامل مع وزارات الاستعمار لا يستطيع أن يخلص إلى الحق وإنما يؤدي دوره في إثارة الشبهات وتقديم الزاد الكافي للدراسات التبشير ومعاهد الأرساليات لخلق ظاهرة انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم ولغتهم وعقائدهم .

وإذا كان الاستشراق علماً كما يحاول البعض أن يقول فأين شرائط المنهج العلمي القائمة على البحث المتجرد والإنصاف .

إن هناك مرحلتين لتقسيم الاستشراق :

مرحلة عقدية ومرحلة أخرى جديدة يطلق عليها اسم مرحلة علمية ، أما العقدية فهي تلك المرحلة التي هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وضراوة وأما المرحلة الجديدة والتي تسمى بالمرحلة العلمية **وهو وصف غير صحيح**، ولو أنها وصفت بأنها (سياسية) لكان ذلك أصح وأصدق ، والمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه في العقدين الأخيرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر واستعمل أسلوباً أشد مكراً وأسوأ سبيلا وهو محاولة الدخول في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى يخدع القاريء ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يثير شبهات خفية متتالية في إطار هذا التقدير العام الكاذب ، ولقد تنبه لهذا كثيراً من الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته ، وحذروا من الانخداع له.

وغالباً ما يكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودي إلى ساحة الاستشراق ومن هؤلاء المستشرقين اليهود (برنار دلولي ، ردونسون ، جاك بيرك ، م بيرجر) .

ولا ريب أن الاستشراق في المجال العقدي يعمل على هدم الإسلام والقرآن ، وفي المجال السياسي يعمل على هدم الأمة العربية واللغة العربية والحضارة والتاريخ (١) .

على أن الدكتور صلاح المنجد يصنف المستشرقين في كتابه (المنتقى من دراسات المستشرقين) إلى ثلاثة ضروب :

١ ـ ضرب لم يملك الفهم اللغوي والبلاغي الدقيق فأخطأ في نشر الكتب وفي فهم النصوص ، ولكنه حفل بأمور شكلية ، لا فائدة لنا منها .

٢ ـ وضرب أثرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه ، ومن المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذي يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده أو الطعن في تراثه وعقيدته بغير الحق .

٣ ـ وفريق ثالث أوتي من سعة العلم والتمكن من العربية والإخلاص للبحث والتحرير والإنصاف ولكن يظهر أن الفريق الذي يكشف أخطاء المستشرقين الآخرين ويجلي حقائق العربية والإسلام ـ وهو على قلته ـ يتنامى فترة بعد فترة ووقتاً أثر وقت .

---

(١) شبهات التغريب : أنور الجندى ٩١ ـ ٩٣

(يقول الأب : انستاس الكرملي) وهو ممن اتصل بالمستشرقين ان علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق ، ولا بد من أن يُنتقدوا الإنتقاد الصحيح ، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين في جميع الأمم ، وفي جميع التصانيف وما نشروه من الكتب (١) .

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن أشد المستشرقين تعصباً ضد الإسلام ورسوله هم الفرنسيون فهو يقول : انه من النادر أن تقرأ لمستشرق فرنسي شيئاً طيباً عن حياة الرسول ، لأنه حتى لو وجد شيئاً طيباً فإن لسانه لا يطيعه في كتابته ، ولو قاله فإنه يتحفظ في قوله تحفظاً بالغاً ، حتى يخيل إليك أنه يخشى الوقوع في النار .

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاث المتداخلة التي يتخذها التعاون شارة له ، دلالة على قوة التماسك (٢) .

كما نوه الدكتور محمد البهي في كتابه : الاستعمار وصلته بالفكر ، أن جميع المستشرقين المغرضين والمستعمرين المعادين هم من الكاثوليك ، حتى أنه على حد قوله – لم يجد مستشرقاً مغرضاً واحداً من البروستانت . . (٣) .

ونتيجة لذلك فلا بد أن نضع في أذهاننا عند أية دراسة استشراقية أموراً لها أهميتها وخطورتها :

---

(١) مجلة المجمع العلمى بدمشق المجلد ١٤ـ٣٣٦ عام ١٩٣٦ .
(٢) نقله كتاب : الاسلام والثقافة العربية ص ١٠٦
(٣) فى مقدمة كتابه .

(أ) أن العصر الذي اشتد فيه أزر الاستشراق ــ وهو القرن التاسع عشر - يغلب عليه الطابع العلماني الذي ينكر فيه القوى الروحية التي لا تخضع لمختبراتهم ، وهو العصر المادي الذي استطاع إلى حد كبير أن يتغلب على رجال الدين الكنسيين .

(ب) إن المستشرقين لا يستطيعون أن يتحرروا من أفكارهم السابقة ، ومشاعرهم الموروثة ، كما أن كثيراً منهم استهدف من دراساته الاستشراقية أغراضاً تبشيرية مسمومة .

(ج) ان كثيراً منهم جمع إلى غرضه التبشيري أغراضاً استعمارية يمكنها أن تغرب الثقافة العربية والإسلامية حين تقضي على قوى العالم العربي والإسلامي المعنوية والمادية .

(د) إن غربة المستشرقين عن العربية و الإسلام لا يمكن أن تمنحهم الدقة المطلوبة ولا الفكر المستوعب في البحث الموضوعي حتى ولو اختص معظمهم طول حياته بقضية من قضايا الإسلام وعكف على التراث تحقيقاً وتعليقاً ونشراً .

• ثالثاً ــ الاعمال الاستشراقية عن الرسول ﷺ

ومن الجدير بالذكر أن يتبين الباحث تنوع أعمال المستشرقين التي تزخر بها المكتبة العالمية وأن جهودهم الفكرية عن سيرته الشريفة تكاد تربو على غيرها من إنتاجهم الفكري .

وكانت منطلقاتهم الموضوعية العلمية حيناً ، ومنطلقاتهم المغرضة المشبوهة أحياناً كثيرة تدفعهم للاستزادة من البحث المتواصل

في جوانب السيرة النبوية جميعها ، وعلى المستويات الفكرية المتعددة التي تقدمت بها إلى الإنسانية .

(أ) فمن الترجمات التي نشطت في أوروبا عن طريق الأديرة والمبشرين بدأت حياة الرسول تظهر معالمها أمام أذهانهم ، وقد قام بحركة الترجمة لفيف كبير من الرهبان المستشرقين ، وكان معظم المبشرين يدرسون فن الترجمة في معاهد خاصة تشرف عليها الكنائس العالمية ، ومن أقدمها الرهبانية البندكية المؤسسة ١٥٢٩م وبعدها الرهبانية الدومانيكية ، والرهبانية الفرنسيسكانية ، واشتهر منهم جربري أورلياك ، وأدلر ، وأدف باش ـ وغيرهم ولكنهم لم يقتصروا على ترجمة السيرة النبوية بل شملت نواحي عديدة من الثقافة العربية الإسلامية ، ومن الترجمات : كتاب المغازي للواقدي . وهو أقدم مصدر للسيرة النبوية في ثلاثة أجزاء وطبع في برلين ١٨٨٣م .

(ب) ومن الدراسات المتنوعة ما أشرت إليه في مراجع البحث بدءاً من المقالة القصيرة أو الفصل المحدود مثل : كتاب الأبطال : لتوماس كارليل ، ونهاية بالدراسة المستفيضة من مثل: النبي محمد حياته ودينه: سيمون فايل الألماني في ثلاثة مجلدات وسيرة محمد في ثلاثة أجزاء : سبرنجر ومعاونيه ١٨٦١ ـ ١٨٦٩م .

ولعل أقدم دراسة عن نبوة الرسول والأنبياء جميعاً ما كتبه (تورميدا) سنة ١٤١٧ في كتابه : النبوات ، الذي استند فيه إلى رسائل **اخوان الصفا** ، فقد كتبه بالقطلوبية ثم ترجم أربع مرات إلى الفرنسية ومرة إلى الألمانية ، ونشر في المجلة الأسبانية (١) .

---

(١) العقيقى ١ـ١٣٦ .

ولا ريب أن معظم هذه الدراسات تهدف إلى تشويه شخصية الرسول و تجريده من النبوة و ربما منحته صفات إنسانية عامة كالبطولة والعبقرية والعظمة . .

أما كتاب : محمد ، الذي ألفه القسيس (اسكندر ديبون) فهو أقدم منه فقد ألفه عام ١٢٥٨م وكان الناس يعدونه تاريخاً صحيحاً للرسول مع أنه ليس كذلك (١) ولم يعرف عن مؤلفه بأنه من المؤرخين المستشرقين .

(ج) ومن التحقيقات في التراث الإسلامي شملت : أصول السيرة النبوية ، ومراجعها القديمة ، فقد حقق المستشرق الدكتور مارسدن جونس . وهو انكليزي تولى إدارة معهد اللغات الشرقية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، كتاب : المغازي للواقدي السابق الذكر ، ونشرته مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦م ، وقد صنفت على طريقه التراجم التي كان لها الأثر الأكبر في التأليف التاريخي فيما بعد .

فقد صنف على غراره تلميذه وكاتبه محمد بن سعد كتاب : الطبقات ، ونقل عنه كثيراً . ويقول جونس : والكاتب الوحيد الذي عاصر الواقدي في التأليف عن الطبقات هو الهيثم بن عدي ، وعلى ذلك فإن الواقدي يعتبر من الرواد الذين أرسوا دعائم الرجال (٢) . ويضم خمساً وثلاثين صفحة مقدمة عن الواقدي ومصادر كتابه ، وعشر صفحات مراجع له من مطبوع ومخطوط ، ومئة وتسعين صفحة فهارس .

---

(١) كتاب اوربا والاسلام ص ٤٠ الحاشية

(٢) انظر معجم الادباء : ١٩ـ٣١٠ ومقدمة المغازى ١ـ١٥ .

كما حقق (دي خويه) كتاب : تاريخ الرسل والملوك للطبري في ٨ آلاف صفحة و ١٥٠ صفحة مقدمات وفهارس .

وقدم المستشرق (كارلوس يوهنس توريبرغ) وزملاؤه كتاب : الكامل في التاريخ لابن الأثير في ١٢ مجلداً ، ومجلدا للفهارس مضافاً إليها استدراكات وتصحيحات (١) ولا ننسى أن من أقدم المؤلفات عن السيرة النبوية : السيرة النبوية : لابن هشام (٢) وقد عني بتحقيقها (دي يونج) بمعاونة (دي خويه) متناً وترجمة لاتينية (ليون ١٨٨١م) ثم عكف على تحقيقها بالعربية (فيستنفلد) الألماني مع تعليقات وفهارس بالألمانية (جوتنجن ١٨٥٩ — ٦٠م)(٣)

ان الأعمال الفكرية الاستشراقية السابقة وغيرها عن الرسول اتخذت طابعين :

(أ) طابع السلبية بما يتسم به من التطرف والتبشير والتغريب وهو القادر على تغذية النفوس المريضة بالعداء ضد الإسلام ونبيه ، وتشويه الجوانب الكريمة من شخصيته وطرح الشبهات والطعون على بعض أحداث السيرة الشريفة . وتبين هذا في أكثر آرائهم ودراساتهم .

(ب) وطابع الإيجابية بما يتسم به من الموضوعية والتجرد في البحث الذي يلقي بأضوائه على شيء من حقائق السيرة عند المسلمين وغيرهم ، ويتضح هذا في كثير من التراث العربي

---

(١) أنظر المقدمة ·   (٢) العقيقى ٢ــ٧١٤

(٣) ومعلوم أن ابن هشام المتوفى ٢١٣ أو ٢١٨ استند الى تاريخ محمد ابن اسحق ٨٥ــ١٥٠ قد نهج طريقة الاعوام · أما الواقدى (١٣٠ ـ ٢٠٦) قد نهج طريقة التراجم والرجال غالبا ·

الإسلامي الذي تناولوه بالتحقيق والنشر إلى جانب العديد من الدراسات المنصفة والآراء المعتدلة .

ولا يغيب عن أذهاننا أن في هذه التحقيقات والدراسات هدف استدراج طائفة من المثقفين المسلمين بما ينقلونه عن أساتذتهم المستشرقين من ثناء وتقريظ يوزع هنا وهناك ، فإذا بهؤلاء التلاميذ يجترون جميع أقوالهم ويؤمنون بكل آرائهم وكثيراً ما يحملهم إيمانهم هذا إلى الدعوة لها بالقول والقلم ويتحمسون لإذاعتها في المجالس الأدبية والإنتاج الكتابي تحت اسم البحث العلمي والافتراضات الجدلية والتشكيك بالتراث .

وسيتناول البحث فيما يلي هذين الجانبين أو الموقفين :

(أولاً) : المواقف الاستشراقية الإيجابية والمعتدلة .

(ثانياً) : المواقف الاستشراقية السلبية والمغرضة .

الباب الاول

مواقف المستشرقين الايجابية والمعتدلة

أولا   ملامح شخصية انسانية متفوقة

ـ ملامح شخصية نبى ورسول

موقف المستشرقين منالهجرةالنبوية

ـ دراسة هذه المواقف

(الباب الأول)

مواقف المستشرقين الايجابية والمعتدلة

لقد تميزت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام في نظر المستشرقين بمزايا عديدة . وقد درس كل منهم هذه المزايا أو بعضها من وجهة نظره الخاصة ، فبعضهم عد محمداً صلى الله عليه وسلم قائداً وزعيماً ، وبعضهم جعله في مصاف المصلحين الاجتماعيين ورائداً من روادهم ، وآخرون رأوا أنه أحد عباقرة العالم الذين يندر أن يحظى العالم بمثله ، ولكن القلة منهم من أبرز شخصيته كرسول ، وأقل منهم من وصفه على أنه نبي أوحي إليه بالإسلام . ولكن اصطفاء الله له رحمة للعالمين يستوعب السمات الأخرى التي أعده الله لها .

وهؤلاء – ولا شك – متأثرون بمواقف المسلمين من نبوة الرسول من ناحية ، ومقتنعون برسالته حسب الروايات التاريخية الصحيحة من ناحية ثانية ، ومقبلون على الإيمان بنبوته والدعوة إلى رسالته في بعض الأحيان من ناحية ثالثة . وسنفصل الكلام عن هذه المواقف لتتجلى جوانبها وسماتها .

وتعدد وجهات النظر الاستشراقية هذه لا تدل على عظمة هذه الشخصية في نظرهم وحسب وإنما تدل أيضاً على تكامل

ملاحظات وتصويبات

نعتذر للقارىء الكريم عن الاخطاء التى وردت بهذا البحث القيم ، وتضع بين يديكم بيانا بأهم الاخطـــــاء وتصويباتها تاركين لفطنتكم ملاحظـة ما يؤدى اليه نقص الحبر وزيادته أو اختلاف درجات سرعة الطبع مـــن ملاحظات ، سائلين الله للجميـــــع التوفيق . (التحرير)

الصفحة والسطر	الخطـــأ	الصـواب
ص ٥ السطر قبل الاخير	وجود حرف (فـ)	حذفه
ص ١٦ سطر ١٣	طول حيانه	طول حياته
ص ٢٣ سطر ٦	المستشرفون	المستشرقون
ص ٢٣ سطر ٧	ملتهم	قلتهم
ص ٢٥ سطر ٣	ويبالغر	ويبالغوا
ص ٢٧ سطر ٤	أقر	اقرأ
ص ٣٤ السطر الاخير	الفايكان	الفاتيكان
ص ٧١ سطر ١٩	حياة محمد	وحياة محمد
ص ٧٨ سطر ١٤	العرب	للعرب
ص ٨٠ سطر ٤	والعكرى	والفكرى
ص ٨٢ سطر ٥	وكشفوا	وكشفت
ص ٨٤ سطر ٢	وأنفقت	وبذلت
ص ٨٤ سطر ٦ من أسفل	فتطبع	وطبعت
ص ٨٤ سطر ٦ من أسفل	وتنحو بها	ونحت
ص ٨٥ سطر ٤ من أسفل	تقوى	وتقوى
ص ٩٠ سطر ٤ من أسفل	اخلال	احـلال
ص ٩٣ سطر ٨	تنسحب	تستمر
ص ٩٦ سطر ٧ من أسفل	يقر	يقرون
ص ٩٨ سطر ٧	قوته الخبز والماء	قوته التمر والماء
ص ٩٩ سطر ٣ ، ٤	لست كهيئتكم اني أبيت عند ربي	أبيت يطعمنى ربي ويسقين

الصفحة والسطر	الخطـــا	الصــواب
ص ١٠١ سطر ٨	بمسنده	بسنده
ص ١٠١ سطر ٣ من أسفل	بمسنده	بسنده
ص ١٠٢ السطر ٥	وأهوالهم	وأحوالهم
ص ١٠٣ سطر ٦	تتورم	ترم
ص ١٠٤ سطر ٨	وسلم فقرأ	وسلم ليلة فقرأ
ص ١٠٦ السطر الاول من أسفل	ظهور السيد الرسول	ولادته صلى الله عليه وسلم
ص ١١٢ سطر ٣	كانت آمنة	كانت آمنة تراها
ص ١١٨ سطر ١٠	عليهما السلام	عليه السلام
ص ١٢٠ سطر ٨	لولا أنزلت	لولا أنزل
ص ١٢٢ السطر الاول من أسفل	دخلنا على جابر بن حسين فاهوى	دخلنا على جابر بن عبد الله فسال عن القوم حتى انتهى الىفقلت : أنا محمد بن على بن حسين •
ص ١٢٣ سطر ٣	ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان	ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج ، ثم ذكر الحديث الى أن قال : فلما كان •
ص ١٢٥ السطر الاول	الوحيد	التوحيد
ص ١٤٢ سطر ١٠،١٢،١٣	الآذان	الأذان
ص ١٤٦ سطر ٣ من أسفل	عربية وأجنبية	عربيه وعجميه
ص ١٤٦ سطر ٩	الا أن	(فى مسند أحمد) أن لا
ص ١٤٦ سطر ١٠	أن يضغوا	أن يمنعوا
ص ١٤٦ سطر ١١	مني غير	مني شيء غير
ص ١٥٩ سطر ١٠	لا اله الا الله محمد رسول الله	أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله
ص ١٦١ سطر ٥	الاسلام	للاسلام
ص ١٦١ سطر ١١	باوهالا	باوهام

هذه الآراء لتعبر عن شخصية الرسول إنه « المثل الكامل الأعلى »

ولهذا لا بد من تصنيف مواقف المستشرقين الإيجابية من ملامح شخصية الرسول إلى :

ملامح شخصية إنسانية متفوقة .

ملامح شخصية نبي ورسول .

وبينما يفصل المستشرفون هذه الملامح ، ويدرسون سمات منها على أنها الشخصية المحمدية يذهب آخرون – على قلتهم – إلى أن السمة الكبرى هي : النبوة والرسالة .

أولاً : ملامح الشخصية المحمدية الانسانية المتفوقة

لقد اعتاد الفكر الاستشراقي خاصة والغربي عامة أن يتلقى أحداث العظماء والقادة ورواد الإنسانية ، وأن يرسم تفصيلات حياتهم بالبذخ والاستعلاء وتغيير المباديء وفق الظروف الطارئة .

كما أن آخرين منهم كانوا يقنعون بأن أي عظيم من هؤلاء يتخذ شكلين لحياته : حياة خاصة يشبع فيها ميوله ويروي غرائزه ويتحرر من أقواله ومبادئه المعلنة ، وحياة عامة يحاول فيها أن يكسب ثقة الجماهير وألفتهم بما يتظاهر أمامهم من السمو في الفكر والسلوك وهم يقولون : أليس من الطبيعي أن يحيا الإنسان حياته الخاصة ؟ وهل يخدش المباديء أو يزورها حين يتخلى عن ارتباطاته الأخلاقية بالآخرين ؟ ثم أليس من حق المنتصر أن ينعم بانتصاره فيلهو ويبذخ ؟

نعم : تلك افتراضات أو حالات يمكن أن يتصف بها إنسان

يخضع لنزواته الخاصة كما يمكن أن تشده إصلاحات مجتمعه إليها . وإذاً يمكن أن يتمتع بحياتين لا يرى تناقضاً فيما بينهما فلا يُرى هذا التنافس بين الفكرة والتطبيق أو بين المبدأ والميادين العملية الخاصة والعامة .

أقول : قد يظهر هذا في إنسان ــ وإن كان قائداً أو مصلحاً ، ومع هذا فإن مثل هذا الإنسان يأخذ مكانه المرموق بين رواد الإنسانية ومصلحيها وقادتها .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفانا الله الحديث في هذا حين وصف الله نبيه بالشخصية الإنسانية الكاملة حين قال : « **وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** » .

ومن هنا يعجب المستشرقون أشد الإعجاب حين لا يجدون في شخصية الرسول ما وجدوه في شخصيات أخر امتلأ التاريخ الحديث عنها إكباراً وتقديراً ، ومن ثم فقد دفعهم هذا إلى إبراز مثل هذه النواحي الإنسانية المتفوقة .

(أ) تفوقه في الذكاء والتدين والرأفة :

فقد وصف (بارتلي سانت هيلر) الرسول بأنه « أكثر عرب أهل زمانه ذكاء وأشدهم تديناً ، وأعظمهم رأفة ، وأنه نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه وأن دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده كان جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته » (١) .

---

(١) من كتاب الاسلام والثقافة العربية : انور الجندى ــ ٢٣٤ ــ وكتاب : محمد النبى العربى ــ عمر أبو النصر ــ ٢١

(ب) تجرده من حب العظمة :

يقول (أرفنج) : كان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له ، ويبالغ في الترحيب به ، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة هي دولة الإسلام . . إلى أن يقول : كان الرسول في كل تصرفاته منكراً ذاته ، رحيماً ، بعيداً عن التفكير في الثراء والمصالح المادية ، فقد ضحى بالماديات في سبيل الروحانيات(١) .

(ج) تبرؤه من التبعية المحمدية :

يقول (أرفنج) أيضاً : وكذلك فلا يجيز الرسول أن يسود على حساب نسبة المسلمين إليه ، كما فعل ذلك أصحاب الديانات السابقة الذين نسبوا إلى أسماء أنبيائهم . . ولم يستعمل محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه أبداً عبارة (محمدي) ، أو (المحمدية) ، فعلى الرغم من توقيرهم لزعيمهم فقد كان محمد المخلص يعرض عن هذه التسمية دوماً . . إلى أن يقول : ومن الخطأ أن نقول : رجلا محمدياً ، أو امرأة محمدية ، فما قرر محمد في يوم من الأيام إن الدين الذي جاء به من وحي تفكيره ، وما انتحل لنفسه أي صفة إلهية ، وما عبده أحد من أتباعه ، فقد قال : إنه كنوح وموسى . . (٢) .

(د) التزامه بالصدق والتواضع :

يقول (دوزي) : لو صحّ ما قاله القساوسة من أن محمداً

---

(١) من كتاب : حياة محمد : ر.ف بدلى ص ٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٨

نبي منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره ؟ وما بال فتوحات أتباعه تترى ، وتتلو إحداها الأخرى ، وما بال انتصارهم على الشعوب لا يقف عند حد ، وكيف لا يدل ذلك على معجزة الرسول . .(١).

أما (رينان) فقد هاجم في كتاباته الأخيرة موقف (فولتير) من الرسول بقوله : دلتني تجربتي العلمية والتاريخية أنه لا صحة لما أريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء مصدره بعض العادات القومية التي أراد بعض المتحاملين كفولتير ، أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة وتعصبهم الذميم ، كقوله : إنه يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً ــ كما أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ ــ كان على العكس من ذلك ، بريئاً من روح الكبرياء متواضعاً ، صادقاً أميناً ، لا يحمل المقت لأحد ، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهراً ، رقيق الشعور (٢) .

(هـ) تفوقه في صفات إنسانية عديدة :

منها صفات خلقية نادرة فاضلة . فقد قال غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب(٣) : كان محمد (صلى الله عليه وسلم) شديد الضبط لنفسه ، كثير التفكير ، صموتاً ، حازماً ، سليم الطوية ، وكان صبوراً قادراً على احتمال المشاق ، بعيد الهمة ، لين الطبع ، وديعاً ، وكان مقاتلا ماهراً ، فكان لا يهرب أمام

---

(١) من كتاب الاسلام والثقافة العربية ــ ٢٣٦ ومعلوم أن (دوزى) معروف بعدائه للاسلام وللرسول ٠

(٢) من كتاب : الاسلام والثقافة العربية ص ٢٣٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٤ ٠

الأخطار ، ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ، وكان يعمل ما في الطاقة لإنماء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه . ومنها سلوك وأعمال خاصة :

يقول (بدلي) وسواء أقر الإنسان لكتّاب من مناصري محمد ، أو لكتّاب من أعدائه فإنا لنجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على أن البساطة الوقور كانت تعم حياته (١) .

ويركز (كارليل) الحديث حول حياة الرسول قائلا : لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وسائر أموره وأحواله ، كان طعامه مادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وأنهم ليذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ إنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيــده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة . . (٢) .

ومنها تعاليمه الأخلاقية ، النظرية منها والتطبيقية : يقول (درمنغم) في قضية الأسرة و المجتمع : كان للدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع ، فحرم الزنا والمتعة ، وحياة الغرام ، ومنع إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن . . (٣) .

وما من تعقيب على هذه الأقوال إلا أنها غيض من فيض ، وشذرات عطرة من سيرته الشريفة توفرت القناعة لدى المستشرقين

---

(١) من كتابه : حياة محمد ص ٤٠٢ .

(٢) فى كتابه : الابطال .

(٣) كتاب : حياة محمد : اميل درمنغم ص ٢٩٠ .

على إبرازها ، لا للاعجاب بها وحسب ولكن لرد شبهات وطعون يجترىء على طرحها مستشرقون حاقدون معادون ، وهي إلى جانب هذا وذاك مقتبسات من تاريخ الرسول ومن مصادر سيرته الصحيحة .

ثانيًا ـ ملامح شخصية نبي ورسول

إن من أخطر القضايا التي تناولها المستشرقون بالبحث والدراسة : ظاهرة النبوة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم تكن لدى معظمهم القناعة العلمية ولا الإيمان الراسخ بهذه النبوة ، وقد نشأوا على أديان أخرى ونفذوا بشيء من العداء لهذه الشخصية النبوية الكريمة ، ودفعوا دفعاً مقصوداً للإيقاع بنبوته ، وحملوا حملا مغرضاً لتجريده من صفاتها ، وبخاصة أولئك الذين جمعوا بين الاستشراق والتبشير وألبسوا أفكارهم أردية كنسية متطرفة .

والمستشرق حين يعالج موضوعاً إسلامياً ، أو قضية ثقافية عربية يرمي ـ طبعاً ـ أن يقرأه قومه ثم الأقوام الذين له معهم روابط إقليمية إلى جانب ترجمته إلى العربية من مستعرب أو مستغرب لدس الشبهات في عقول المسلمين :

ومهما وضع المستشرق نفسه موضع الحيدة والنزاهة في ظاهرة الوحي والنبوة فإن صراحة الكلمة والجرأة على قول الحق ، وأمانة الرأي ، ومسؤولية الحق العلمي تخونه في كثير من الأحيان وذلك : إما برفضه النبوة رفضاً تاماً بأدلة واهية أو مرجوحة ، وإما بعرضها على أسلوب التشكيك والتردد وإظهارها بصورة متناقضة ومتعاكسة ، وإما اكتفاؤه بتلميحات

وإشارات ترمي إلى الطعن قبل البناء . وقليل أُولئك المستشرقون الذين استطاعوا أن يحطموا قيود التبعية الفكرية ويفكوا أغلال العبودية للمؤسسات التبشيرية العالمية ، ويتحرروا من عمالة التغريب ، فيعلنوا الحق ، ويخضعوا لقواعد البحث الحر ، ويتخلصوا من رواسب التعصب والتطرف فيقرروا أن محمداً رسول الله .

ومعظم المستشرقين الذين يدرسون ظاهرة الوحي والنبوة إنما يدرسونها من خلال الأحداث الإنسانية والأحوال البشرية .

وكثيراً ما يستعينون بالدراسات النفسية والتحليلات التاريخية في دراسة هذه الظاهرة كما تدرس بطولات آدمية وعبقريات إنسانيــة فإذا بهم يخلطون بــين النبوة والعبقريــة ، ويلتبس عليهم معاني البطولة ومعاني الرسالة .

ولكن حقاً إن الفروق بين البطولة والرسالة والنبوة والعبقرية لا تلتبس عليهم ولا يجهلون أبعادها ، فهم على علم بخصائص كل منها ، وعلى معرفة تامة بمزايا كل قضية من قضاياها ، إذا استثنينا أُولئك المستشرقين الذين ينحون بتفكيرهم نحو المادية والعلمانية ، وينكرون الوحي كله جملة وتفصيلا ، كما فعل (رينان) حين هاجم النبوات كلها بما فيها نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام .

وكان محترفو الغزو الفكري ، ومروجو التغريب العقائدي عامة والمستشرقون والمستعربون خاصة على علم إجمالي أو تفصيلي بهذه الفروق الفكرية غالباً (١) .

---

(١) من مقال للكاتب .

ولقد نوه الفكر العربي الإسلامي بالفصل بين النبوة والألوهية، وبين بجلاء صلة العبقرية بالبشرية والآدمية ، وكشف عن ارتباط البطولة بجذور الوثنية اليونانية والرومانية .

فمحمد عليه السلام (عبد الله ورسوله) بصريح القرآن والسنة :

« قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلىَّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ »(١) .

وأن كيان الرسول الإنساني بما فيه البطولة والعبقرية والتفوق يتمم كيانه الروحي النبوي الذي منحه الله إياه بعد أن اختاره لهذه المسؤولية الجسيمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٢) .

وما دام الحديث عن مواقف المستشرقين الإيجابية من ظاهرة النبوة فإن التفصيل في شبهاتهم فيها سيكون له موضع آخر وسنكتفي هنا ببيان شيء من المواقف المعتدلة وأحياناً المستيقنة من نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا فلا بد من تفصيل هذه القضية بنظر المستشرقين إلى :

١ ــ العوامل التي دفعت الرسول إلى النبوة والرسالة .

٢ ــ دلائل النبوة والوحي .

٣ ــ صور النبوة والوحي .

أما الفقرة الأولى فليس موضعها في هذا الباب لأن معظم ــ إن لم يكن كل ــ المواقف والأقوال الاستشراقية فيها إنما هي

---

(٢) الكهف : ١١٠ ٠

(٣) الانعام : ١٢٤ ٠

شبهات وطعون تستوجب الرد وسيؤجل البحث فيها إلى : شبهات المستشرقين ، إن شاء الله .

وسنقتصر في البحث على الفقرتين الباقيتين :

(١)ـ دلائل النبوة والوحي :

عقد (فيليب حتى) في كتابه : تاريخ العرب . فصلين طويلين : أحدهما : محمد رسول الله ، وثانيهما : القرآن كتاب الله (١) وهما فصلان محشوان بالأغلاط والشبهات كما كتب غيره مثل (بدلي ، وأرفنج ، وول دبورنت) فصولا أخرى في إثبات النبوة للرسول وإثبات القرآن لله تعالى .

وكان من هؤلاء وغيرهم من لا تدفعه حماسته لتقديم أدلة عقلية أو نصية على نبوة الرسول بل كانوا يكتفون بنقل ما يتصل بها من العلماء المسلمين ومؤرخيهم الثقات ، وهذا طريق في البحث مقبول ولا يرفضه أحد . ولكنه بوجه غير مباشر يبعث على الشك والارتياب . ذلك أن المستشرقين حين ينقلون نقولهم عن المسلمين كأن الموضوع لا يعنيهم من قريب أو بعيد ، بل كأنما يوعزون إلى القاريء أن هذا نوع من وجهة نظر إسلامية خاصة ، قد لا تمت إلى الحقيقة العامة بصلة ، فهم يقولون مثلا : ورد كذا في البخاري ، وكذا في ابن هشام ، وكذا عند المسلمين ، يقول (حتى) : والقرآن عند المسلمين كلمة الله التي أملاها جبريل على محمد من كتاب مكنون في لوح محفوظ في السماء السابعة . . (٢) .

---

(١) ١ـ١٥٥ الفصل الثامن و ١ـ١٦٩ الفصل التاسع .
(٢) ١ـ١٧٠ .

ولكن من هؤلاء المستشرقين من لا يكتفي بعزو ظاهرة الوحي إلى المسلمين ومصادرهم الأصيلة ، وإنما يمر بها إلى مرحلة أخرى وهي إثبات النبوة بالأدلة العقلية التي استوحى بعضهم معظمهما من دراسات إسلامية متخصصة ، كما استنتجها الآخرون من مسلمات وموازنات وحقائق فكرية خالصة ، وبينما نجد أن المستشرقين المسلمين أكثر حماسة وأوضح بياناً وأوعب حجة بدافع من عقيدتهم ويقينهم الديني فإننا نجد أيضاً مستشرقين لم يدخلوا في الإسلام ، حملهم الإنصاف وقول الحق على مشاركة أولئك في الحديث عن دلائل النبوة ، ولكن بحماسة أقل وأخطاء أكثر .

وأن ما يكتبـــه مثلا (آتين دينه) الذي أسلم وتسمى (بناصر الدين) ، و(رينيه جنيو) الذي أسلم أيضاً وتسمى بـ (عبد الواحد يحيى) و (ليوبولد فايس) الذي تسمى بـ (محمد أسد) وغيرهم لا يمكن أن يكون بمثـــل الجرأة والصراحة والصدق والتفصيل التي كتب بها سائر المستشرقين المعتدلين من أمثال : (توماس كارليل ، وتولستوي ، واللورد هيدلي) وغيرهم مع تحفظنا من الأغلاط والعثرات التي قد وقع فيها هؤلاء وأولئك أحياناً .

وقد عرضت بعض المؤلفات الاستشراقية والعربية الإسلامية إلى هذه الظاهرة بأساليب متنوعة وأحجام مختلفة ، ولعل من أبرزها : محمد صلى الله عليه وسلم : لتوماس كارليل ، ومحمد رسول الله : لآتين دينه ، والرسول ، حياة محمد : لبدلي ،وحضارة العرب : لغوستاف لوبون ، ومحمد رسول الله : لمحمد رضا ومحمد الرسالة والرسول : لنظمي لوقا ، وهل محمد عبقري

أم نبي مرسل : محمد شيخاني ، ومحمد صلى الله عليه وسلم (المشكلات وجوانبها) عبد الفتاح الإمام . وأوربا والإسلام : للدكتور عبد الحليم محمود : ومؤلفات أثبتها في الفهرست .

و سأعتمد بشكل أساسي المؤلف الأخير لأنه أدنى اتصالا بمواقف المستشرقين مشيراً إلى المؤلفات الأخرى في مناسبتها إن شاء الله .

ولقد دلل المستشرقون على نبوة الرسول بأدلة متنوعة ، يتصل بعضها بالقرآن الكريم ، وبعضها بالتشريع الإسلامي ، وبعضها بأخلاق الرسول وبعضها بالتاريخ العربي والإنساني .

ويقول (العقاد) بعد عرضه للنبوات والدعوات السابقة : فجاءت نبوة الإسلام بجديد لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، ولا حاجة بعده إلى جديد ، ولا استطاعة فيه للتجديد ، لأنه يخاطب في الإنسان صفته الباقية ، وخاصته الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين الأحياء ، وخاصة الضمير المسئول الذي يحهل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه . ثم يقول إنها نبوة فهم وهداية وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، وأنها نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة ، وتردع الضمائر بالخوف والرهبة حيث يعييها قبول الاقناع ، إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعاً و لا ضراً .. وفي موضع آخر يقول : ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة من أكبر الدعوات شأناً في تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ ـــ كائنا ما كان معتقده في الدين ـــ لم يستطيع أن يختم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها وبعد أثرها في العصور اللاحقة

بعصرها ، لأنها جميعها قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير (١) .

(أ) دلائل النبوة والوحى عند المستشرقين :

ومن هذه الدلائل نقتصر على ستة منها وهي :

١ ـ عقيدة الايمان بالله وحده :

وعقيدة التوحيد هي الأصل الأول في الإيمان بالله تعالى وهذه العقيدة لم تكن معروفة بحدودها وصفاتها وبساطتها الإسلامية قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى أولئك الحنفاء فقد تشوهت عندهم هذه العقيدة عبر الأجيال والقرون ، وكان تصورهم للإله الواحد يبتعد عن محدودية الزمان والمكان والجرمية ، كما يبتعد عن الحاكمية والتشريعية والتجردية .

وكذلك فإن تصور الإله في التوراة بـ « يهوه » تصور خاص يتعلق ببني إسرائيل وأنبيائهم وليست له صفة العموم والشمول . وكذلك « نراه في متحف الفاتيكان ، وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة» (٢) .

أما فكرة التوحيد في الإنجيل فهي تذهب إلى التثليث ، واعتبار الأقانيم الثلاثة منفصلة أو واحدة ، وتفرق فرقهم في فهم طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام ، وعلاقة ذلك بالألوهية والتوحيد . هذه التصورات مرفوضة في الإسلام ونبي الإسلام ، مع أنها كانت

---

(١) من كتاب الاسلام والحضارة الانسانية : ١٣٢ ـ ١٣٣

(٢) من كلام الدكتور جرنييه : ونقله كتاب أوربا والاسلام ص ٧٧

وحدها العقيدة الشائعة في الناس قبيل البعثة النبوية ، إذاً فحين يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بتصور جديد عن التوحيد لم يقرأه في إنجيل ولا توراة ، ولم يتعلمه من حنفي قبله ، وهو الموافق للفطرة الآدمية والنزعة البشرية فهذا هو دليل على صدقه ونبوته .

يقول الكونت (هنري دي كاستري) في هذا المعنى : في كتابه : الإسلام سوانح وخواطر : أما فكرة التوحيد ، فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها ، لاحتوائها على مذهب التثليث ، وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقته ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته (١) ولعل هذا البرهان من أوضح الأدلة على أن الإسلام وحي من الله ، فإن مفهوم (التوحيد) الإسلامي عقيدة تميز بها الإسلام عن غيره (٢) وليس هناك في الإسلام إلا إله واحد ، نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع ، وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء رؤية أبيهم (؟) القهار ، المتصل دواماً بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين . .

---

(١) نقله كتاب أوربا والاسلام ص ٤٢

(٢) اللورد هيدلى ونقله المصدر السابق ص ٥٢

٢ ـ القرآن معجزة الرسول البلاغية :

فقد عقد المتعمقون بالعربية من المستشرقين موازنات بين القرآن وبين الحديث النبوي الثابت عنه من حيث الأسلوب والمحتوى واستنتجوا من بعدها أن هناك أسلوبين في البيان ومضمونين في المعاني والمباديء .

فاسلوب القرآن معجز لفظاً ومعنى ، وهو ينبيء عن مصدر علوي رباني ، وأسلوب الحديث يوضح عن قدرة بلاغية بشرية متفوقة .

وكذلك فإن مضامين القرآن ومعانيه كلية عامة في معظمها ، أما مضامين الحديث ومعانيه فهي المفصلة والمبينة والشارحة لتلك المعاني القرآنية الكلية ، على أن في بعضها تشريعاً جديداً ومعاني حديثة خاصة .

وما دام الحديث قد ثبت عن الرسول بالمنهج العلمي الإسلامي ، وما دام القرآن قد تحدى وما يزال يتحدى البشر عن الاتيان بمثله لفظاً ومعنى ، فلا بد أن يكون القرآن وحياً من مصدره العلوي ألا وهو الله تعالى .

وقد أكدت الدكتورة (لورا فيشيا فاغليري) معجزة القرآن البلاغية والأخبارية في سوره وآياته بقولها : إن معجزة الإسلام العظمى هي (القرآن) الذي ينقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق ، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته . . إن آياته على مستوى واحد من البلاغة ، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته ، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً ، وهما صفتان لا تجتمعان عادة ، فكيف

يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد وهو العربي الأمي . . (١) .

ويبرز (آتين دينه) إعجاز القرآن على وجه يفوق النشاط المجمعي اللغوي فيقول : لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية ، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد ، وهذا عكس ما يجده مثلا أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن ، فمن الصعوبة مخاطبة العديد الأكبر من فرنسيي اليوم . وأن لغة القرآن ، وإن كانت تمت في أصولها إلى عصور بعيدة قديمة ، فهي مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها . . (٢) .

٣ – القرآن وحي من الله يؤيده التاريخ :

فقد ثبت لدى المحققين منهم أُمية الرسول ، وعدم اقتباسه شيئاً من كتب سماوية سابقة ، كما ثبت عبر التاريخ إسلام كثير من القرشيين بتأثير القرآن وفاعليته في النفوس ، وقد علموا أنه من الله إلى نبيه فصدقوا برسالته وآمنوا بنبوته . كما أثبت التاريخ الطويل صحة النص القرآني وسلامته من التحريف والتغير على الرغم من الكوارث المادية والتيارات الفكرية ، حتى أصبح

---

(١) نقله كتاب : الاسلام والثقافة العربية ص ٣٠٥
(٢) المصدر السابق .

المسلمون الآن يتلونه كما أنزل ، ويتعبدون بتلاوته كما أوحي به إلى نبيه ، ألا يدل هذا على معجزة القرآن لرسوله ضمن أحداث التاريخ وحوادثه ؟ وأن إيمان أكثر من ثلث سكان العالم في العصر الحاضر ، وهم يزدادون وقتاً بعد وقت ، ألا يبرهن على تنزيل القرآن وحياً على محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ان المؤيدات التاريخية لإعجاز القرآن قد نبهت العديد من المستشرقين . وقد فصل الحديث عن بعضها ، (الكونت هنري دي كاستري) ، في كتابه (الإسلام سوانح وخواطر) فقال : والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فآمن برب قائلها ، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع حين تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة . . . كما ذكر ناقل هذه الرواية (كوزان دي بير سوفال) . . . (١)

وتؤكد الدكتورة (لورا فيشيا) على مصدر القرآن الإلهي بصفاء النص القرآني عبر القرون إلى أيامنا هذه وإلى ما شاء الله فتقول : ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة هو أن نصه ظل صافياً غير محرف طول القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا ، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف بإذن الله ما دام الكون . . . (٢) .

---

(١) نقله كتاب : أوربا والاسلام ص ٤٢
(٢) نقله كتاب الاسلام والثقافة ص ٣٠٧

٤ ـ التشريع القرآني والإسلامي الكامل :

وهو برهان حقوقي وقانوني يؤيد نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، من حيث أن شخصاً ما لا يقدر على الإتيان بتشريع تام مهما أوتي من عبقرية تشريعية ونبوغ قانوني .

فإذا كان محمد أمياً لم يدرس كتاباً في التشريع ، ولم يطلع على مؤلف في الحقوق فكيف تسنى له أن يأتي بقرآن فيه دستور كامل لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة ؟

وقد سبق بعثة الرسول تشريعات سماوية وبشرية ، فمن قانون حمورابي إلى تشريعات الرومان ومن شرائع الأنبياء السابقين السماوية ما يوضح الأبعاد الجزئية في تقرير الحق والعدل والنظام والموازنة بين الحق والواجب . . وغيرها التي تتضاءل أو تنعدم في الشرائع السابقة .

وفي قواعد القضاء الإسلامي ، ونظام الحكم فيه ، والتنظيمات الاقتصادية ، والمالية ، والعسكرية ما يوضح أن شريعة الإسلام لم تكن صنيعة بشر وإنما هي صبغة الله كانت وحياً لنبيه .

وفي الآفاق العالية من تكريم الإنسان ، وتقرير المساواة ، وإيجاب العدل والتسامح ، واتخاذ القانون الدولي الإسلامي منظماً لعلاقات المسلمين بغيرهم في مجالي السلم والحرب ما يبين أن طرح هذه القضايا العالمية قبل أربعة عشر قرنا وبقاءها إلى ما شاء الله برهان على صدق نبوة الرسول .

وفي الأبعاد الحضارية من دعوة للعلم ، وإشادة بالإخلاق ، واحترام للعقل ، وإحقاق للحق ، والنزوع إلى المجالات الإنسانية

العامة ما يلهم أن التنويه بمثل هذه الأفكار الحضارية وخلودها دليل على أنها وحي من عند الله تعالى .

يقول الأستاذ (شيرل) عميد كلية حقوق جامعة فينا ، في مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧م : ان البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد (صلى الله عليه وسلم) لها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة . . . (١) . وأشار الدكتور (كريستان سنوك هرجزنج) الهولندي الذي أمضى سبعة عشر عاماً في الهند الشرقية مستشاراً لحكومة هولندا ، و استطاع أن يدرس قضايا الإسلام ، و أن يواجه مشاكل النفوذ الهولندي مع ٣٥ مليوناً من المسلمين في (أندونيسيا) ، وساح في البلاد الإسلامية خلال ربع قرن يراقب الحركات الإسلامية قال : ان المبشرين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الأديان إليهم ، أما بالنسبة للإسلام فلا تتحقق أحلامهم ، لأن الدين الإسلامي سيظل ديناً قوياً نشيطاً ، ذلك لأن للإسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل أطوارها ، شخصية عمومية ، وفردية اجتماعية . . (٢) . ويقول الدكتور (شبلي شميل) . . . ثم إن في القرآن أصولا اجتماعية عامة ، فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان ، وحتّى في أمر النساء وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصد غيره من الأديان الأبواب فقصر وظيفته البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني . . . (٣) .

---

(١) نقله كتاب الاسلام والثقافة ص ٣٩٦ .
(٢) المصدر السابق ٧ ــ ٨ (٣) المصدر السابق ص ٢١٢

٥ ـ استمرارية الإسلام وإقبال الناس عليه :

لقد سبق الحديث عن هذا الدليل مجملا ولأهميته نسوق معاني مفصلة عنه فيما يلي :

ان استمرار حقيقة ما عبر القرون وخلودها فيما بعد برهان على صلاحيتها ، وأن ديمومة دعوة من الدعوات من الغابر السحيق إلى الحاضر الواقع ثم إلى المستقبل القريب والبعيد ، و إقبال الناس للتمسك بها ، و الالتزام بشعاراتها برهان متمم له . و ما من دعوة يتزايد الناس على الإيمان بها رغبة بها ومحبة بجوانبها وتضحية في سبيل إذاعتها ، ومنطلقاً ذاتياً لنشرها ، ورغبة متزايدة ونفسية للجهاد في إبلاغها مثل دعوة الإسلام .

ويؤكد على هذا البرهان (آتين دينيه) « فيرى أن نفراً من النصارى في مختلف الأقطار الأوروبية دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة . . . ويكثر عددهم على مر الأيام . وفي لندن ، وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيقي فهم فريق من أعيان الإنجليز(١) « ورأى أن الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم إنما هم من الخاصة ، سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية ، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية » (٢) ويقول « ونذكر منهم على سبيل المثال : اللورد هيدلي ، الإنجليزي ، وكريستيان شرمسي . . (٣) ، على أن مؤلفات عربية وغير عربية سجلت

---

(١) من كتابه : الشرق فى نظر الغرب ، ونقله كتاب أوربا والاسلام ص ٢١٢ ٠

(٢) من كتابه أشعة خاصة بنور الاسلام ٠

(٣) من كتابه : الحج الى بيت الله الحرام ٠

آلافاً من الأفراد والجماعات الذين اعتنقوا الإسلام ومنها : رجال ونساء أسلموا .

ويأمل الدكتور محمد خليفة أنه بعد كشفه عن الوجه البنائي والعددي لإعجاز القرآن ، أن يسلم عشرة ملايين من الأمريكيين من ذوي النفوذ الفكري والمالي والرسمي (١) .

يقول (غوستاف لوبون) إن هذا الكتاب قانون ديني وسياسي واجتماعي ، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون (٢) ، وقال (جيبون) : القرآن مسلم به من حدود الأوقيانوس الأطلنطي إلى نهر الجانجس بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط ، بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التي عليها مدار نظام حياة النوع الإسلامي ، وترتيب شئونه . . (٣) .

ويعجب (كارليل) من مروجي الكذب على الإسلام فيقول : فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت ، أكذوبة كاذب ، أو خديعة مخادع ، ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد » . . (٤) .

٦ — شهرة الرسول بالاستقامة والصدق والبساطة :

وهو برهان يكشف عن علاقة الداعي بالدعوة وعن إيمان

---

(١) انظر محاضرته فى اعجاز القرآن العددى .
(٢) نقله كتاب الاسلام والثقافة .   (٣) المصدر السابق ص ٣٠٠
(٤) نقله كتاب : أوربا والاسلام ص ٤٥

الرسول برسالته ، كما يتعلق بأخلاقه قبل البعثة وبعدها ، وبصفاته الخاصة الفردية وصفاته العامة الاجتماعية ، ثم يرتبط أيضاً بأهداف الدعوة ومقاصدها .

لقد اشتهر الرسول بالصدق والأمانة قبل البعثة حتى لقب « بالأمين » وهو لقب يؤكد على الحديث عنه المستشرقون حتى أن بعضهم ليشتبه عليه الأمر فلا يذكر اسمه الأساسي « محمد » وذلك لأنهم أرادوا مخالفة الاجماع العلمي والتاريخي بروايات مرجوحة تفيدهم في ذلك شيئاً ، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد .

والكذب على النفس ، والكذب على الآخرين صورتان معوقتان لأية دعوة تريد أن ترى النور وتضيء على العالم بأنوارها ، ولا يمكن لداع أن يستمر على الكذب في نجاح دعوته بين أهله وبين الآخرين .

يقول (كارليل) : هل رأيتم رجلا كاذباً يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد ، فما بالك بالذي يبني بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟ و على ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلا كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع ، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق . وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول . . . وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفي موضع آخر يتابع حديثه عن صفات الرسول فيقول : لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر

أموره وأحواله ، فكان طعامه عادة الخبز والماء ، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ، فحبذا محمد من رجل متقشف خشن الملبس والمأكل — مجتهد في الله ، دائب في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان . . (١) .

وأدلة أخرى تستنبط من الحديث النبوي ، ومن بشائر الكتب الدينية السابقة ، ومن الأخبار عن المغيبات ، ماضياً ومستقبلا . . وغيرها ، يشير لفيف من المستشرقين إلى بعضها ، ويفصل آخرون الحديث عنها مقتبسين مادته العلمية من مصادر عربية وإسلامية إلى جهودهم الفكرية الحديثة .

(٢) — صور وأنماط الوحي الإلهي :

ان المستشرقين مسلمهم ومعتدلهم في قضية دلائل النبوة وصور الوحي ، يعتمدون على المصادر الإسلامية الثابتة من حديث وسيرة ، كما يستأنسون بالحقائق التاريخية في سيرة الأنبياء والرسل السابقين ، ويضيفون إليها شيئاً من دراساتهم النفسية والاجتماعية واجتهاداتهم الشخصية ، فما اعتمدوا عليه من نقل المصادر الإسلامية الثابتة لا يقبل الرفض ولا الجدل والنقاش ولا الاختلاف والتعارض وما استأنسوا به من الحقائق التاريخية عن النبوات فهو مما يدعم دراستهم ويقوي حجتهم وما أضافوه من دراسات نفسية واجتماعية واجتهادات شخصية فهو مجال للتعارض والتباين

---

(١) نقله كتاب : أوربا والاسلام ص ٤٦ — ٤٧

والتنازع . ولهذا فإن المستشرقين يقفون من ظاهرة النبوة وصور الوحي مواقف متعددة (١) .

١ ـ محمد رسول الله :

فقد تحدثت مؤلفات استشراقية عن نبوة الرسول وعن أنواع الوحي الذي كان الرسول يتلقاه ومنها : الرؤيا الصادقة ، والوحي الذي يحمله إليه جبريل عليه السلام .

فقد ذكر (آتين دينيه) خلوة الرسول « انها صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ولذلك أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » . . كما تحدث عن الرؤيا الصادقة فقد « أخذ محمد يرى الرؤى الصادقة الوضاءة ويسمع النداء الذي لا يعلم له مصدراً . . . » ويبين أن الوحي كان « الحادثة الخالدة ، إذ تجلت رأفة الرحمن بعباده فأنزل إليهم الوحي عن طريق الرسول . . وفي تلك الليلة الخالدة ليلة القدر نزل القرآن كله من السماء العليا حيث كان محفوظاً بها إلى السماء الدنيا . . ومنها نزلت أولى الآيات الكريمة على محمد . . وأن الملاك جبريل الذي رآه الرسول إنما هو الملاك جبريل الذي ظهر للنبي دانيال ولمريم . . وقد كان يأتي إلى الرسول في صور متعددة » .

ثم ذكر هذه الصور كما وردت في الأحاديث الصحاح .

٢ ـ محمد لم يؤلف القرآن :

وهي حقيقة تاريخية وإنسانية على الرغم من دسائس بعض

---

(١) يقتبس البحث هنا شيئا من صور الوحى الذى كتب فى مناسبة سابقة

المستشرقين الذين يدعي بعضهم : ان أعظم ما صنعه محمد هو القرآن ، أو يقول أن القرآن مظهر لانطباع نفسية محمد وفيض من عقله الباطن وليس وحياً إلهياً .

يقول (آتين دينيه) : حقاً أنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أن محمداً قد انتهز فرصة الخلوة هذه فروى ورتب عمله للمستقبل بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فوسوس أن محمداً ألف في تلك الفترة القرآن كله . . أحقاً لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خال من أية خطة سابقة على وجوده مرسومة على نسق المناهج الإنسانية ، وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها بحادثة وقعت بعد الرسالة طيلة فترة تزيد على عشرين عاماً ، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ له . . ومع ذلك فقد أتى محمد بمعجزة ، انها المعجزة الوحيدة التي منحت له ! ! .

ان معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان السريع بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية المعجزة الخالدة ، ذلك أن تأثيرها دائم ، ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله . . كلا ان هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات . . (١) .

---

(١) من كتابه : محمد رسول الله : ١ـ١٠٩ علما أن معجزات كثيرة قد ثبتت للرسول في الاحاديث الصحيحة مثل : انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتكثير الطعام ، ونبع الماء ، وانظر أيضا ص ١٠٢ و ص ١٣٨ .

ويقترب (ول ديورنت) من مستوى الإيمان بنبوة الرسول وأن ما يوحى إليه من كلام الله :

ويعتمد في ذلك ـ وهو الحق ـ على روايات كتاب السيرة والمحدثين بمنهج أقرب إلى الموضوعية على الرغم من بعض الجهالات والتزايدات التي تؤدي بالقاريء إلى شبهات التغريب والتشريق ، يقول (ول ديورنت) : وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكاً في شؤون الدين . فإذا حل شهر رمضان ـ وهو من الأشهر الحرم ـ (١) آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة وقضى فيه عدة أيام وليالي في الصوم والتفكير والصلاة ، وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام ٦١٠م إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور عليه تاريخ الإسلام كله . . ثم يورد شيئاً من رواية ابن اسحق في بدء نزول الوحي في ١ / ١٥٣ وما بعدها من سيرة ابن هشام (٢) .

٣ ـ نبوة غامضة ورسالة ذاتية وأحياناً خارجية :

وينهج العديد من المستشرقين في النبوة والوحي منهجاً روائياً حيناً وغامضاً حيناً آخر ، وإحساساً ذاتياً حيناً ثالثاً ، وبعض هؤلاء يقصرون الوحي على إبراز جانب منه وهو الرؤيا الصادقة ،

---

(١) الاشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب كما هو مشهور ، وليس من بينها رمضان ، والذى فى سيرة ابن هشام ١ـ١٥٣ أنه كان يجاور فى حراء من كل سنة شهرا دون تعيين شهر رمضان .

(٢) فى كتابه : قصة الحضارة : ٢ـ٢٤

حتى أنهم يبعدون الملك جبريل من قيامه بحمل الوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

(أ) يقول بدلي : . . . (١) وقد انتابه على مر الأيام حالة عصبية في تفكيره . . وقد أثر الصيام والسهر في صحة محمد الذي كان قد اعتاد على الأكل والحركة والحياة الطليقة ، فكان يرى أثناء نومه الخفيف رؤى غريبة كان يتذكرها جيداً حين يصحو .. وإلى جانب هذا يؤكد(بدلي) رسالة محمد بقوله : وما من يهودي أو بوذي أو مسيحي قد رأى دينه ينمو أمام عينيه بهذه السرعة المعجزة ، وما من قائد ديني آخر قد كوفيء كما كوفيء محمد في حياته ، وإنه ليبدو كأنما شاء الله أن يؤكد أن محمد آخر رسله ، وأن الإسلام آخر دينه(٢) .. أما الوحي فهو ما انفرد به الرسول ، يقول (بدلي) أيضاً أن محمداً ينفرد في تاريخ الديانات بأنه كان يوحى إليه جميع ما كان يفعله ، وما كان قديساً ولا ملكاً ، وما كان له ما يميزه في الحياة عن المسلمين الآخرين لو استثنينا شخصيته الفذة ، فما كان له اسم ذائع ولا مال معدود وما كان يعيش عيشة تختلف عن سائر الناس . . إلى أن يقول : وقلما أفكر فيه كمؤلف للقرآن ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظم (٣) .

(ب) أما (فيليب حتى) فيعرض ظاهرة الوحي والنبوة

---

(١) من كتابه الرسول ، حياة محمد ص ٦٩-٧١ ، وفى كتابه : شبهات كثيرة .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٢

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٨ وقد عرض سابقا فرية : تأليف الرسول للقرآن .

على أنها رؤيا وتأمل ثم ينتهي بعد ذلك إلى أنه صوت جبريل فيقول : . . . فتوفرت له (للرسول) السبل لكي يترك نفسه لسجيتها من التفكير والتــأمل ، واعتاد محمد أن يذهب إلى غار بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – ممعناً في التأمل والاستلهام ، وفيما هو نائم يوماً في هذا الغار سمع صوتاً يأمره قائلا :

« اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . . . »

إلى أن يقول: إلى أن جاءت السور المدنية فإذا الصوت واحد واضح .. وإذا بمحمد يتحقق أنهذا الصوت هو صوت جبريل(١) ويقول في فصل : القرآن كتاب الله . .

ولقد اتفق دارسو القرآن من نقادة العلم الحديث على صحة الرواية في نسخه المتداولة اليوم ، وأن هذه النسخ تكاد أن تكون مطابقة للأصل الذي أقره زيد ، وأن نص القرآن المعروف اليوم هو كما أنزل على لسان محمد ، والقرآن عند المسلمين كلمة الله التي أملاها جبريل على محمد من كتاب مكنون في لوح محفوظ في السماء السابعة . . (٢) ويقول أيضاً : جمع محمد في شخصه وظائف النبوة والاشتراع والأمانة والقضاء وقيادة الجيش والرياسة المدنية في الأمة ، ولكن محمداً قد مات الآن ، فمن ذا ترى يخلفه

---

(١) من كتابه : تاريخ العرب ١ـ١٥٧ ويعزو كلامه الى رواية البخارى ١ـ٣ ، ولا ريب أن الرسول كان يعرف جبريل فى مكة قبل المدينة ٠

(٢) المصدر السابق ١ـ٦٩ ـ ١٧٥ ، ولا معنى لقوله : وان هذه النسخ تكاد ٠٠ الا التشكيك ٠

بعد موته ؟ على أن وظيفة الرسول من حيث هو خاتم النبيين وأعظمهم هي بطبيعتها قابلة للانتقال إلى خلف يرثها عنه . . (١) .

(ج) وأما (درمنغم) فينحو في حديثه عن هذه الظاهرة منحى « روائياً قصصياً ملفقاً بين روايات مختلفة يقول : عانى محمد أزمة فأراد أن يجد حلا في عزلته الجبلية ، فهل يسمع الحقيقة لأبدية التي تتفجر من صميم الأشياء في صوت البرية العظيم الذي ينظر في السماء ذات الكواكب فوق رأسه ، ويستمع إلى أعماق قلبه البشري الأمي الفطري النقي الخالص ؟ كان لدى محمد ريب في حكمة الناس ، وما كان ليرضى بغير الحقيقة الناصعة ، وما كان ليعيش إلا في الحقيقة ، فما كان يراه حوله ليس حقاً ، وما كانت حياة قريش حقاً . . وأصبح له بالصوم والسهر وإنعام النظر في الفكرة الواحدة ما تهيم به روحه ، وأضحى لا يفرق جيداً بين تعاقب الليل والنهار وبين اليقظة والمنام ، وغدا يقضي طويل الساعات جاثياً في الظلام أو مستلقياً تحت أشعة الشمس أو سائراً بخطى واسعة في الشعاب الصخرية ، وكان كلما سار خيل إليه أن أصواتاً تخرج من الحجارة ، فإذا ما تعثر بحجر ارتد ، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس ، والحجارة تحييه بـ « رسول الله » ثم يقول : . . فيرى في منامه رجلا صافا قدميه في أفق السماء يدنو منه باسطاً ذراعيه ليقبض عليه فيصحو مذعوراً مبللا عرقاً .. ثم يذكر عودة الغم إلى الرسول قبيل بدء الوحي فيقول : عاد الغم إلى محمد فارتعش واحمر وجهه واصفر ، وصار يسمع دوياً في أذنيه وشخص بصره فكأن شيئاً غريباً جاءه فقال : ها هو قد جاءني . لم يكن ذلك في المنام بعد أن عاد محمد لا ينام ولا

(١) المصدر السابق ١ـ١٨٩ وفي بعض كلامه نظر وتعقيب .

يحلم ولم ينفك ذلك الكائن العجيب عن الاقتراب منه . . وكان محمد نائماً ذات ليلة في غار فلم يلبث أن أتاه الشخص العجيب بنمط من ديباج عليه كتابة فقال : اقرأ . قال محمد : ما أنا بقاريء فانقض عليه ذلك الشخص فشده . . إلى أن يقول : قال محمد : ماذا أقرأ ؟ قال :

« إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . . . (١)

ويؤكد (در منغم) على معجزة الوحي والنبوة فيقول :

تلك هي معجزة الوحي ، وذلك هو سر الكلام المكتوب المؤثر في الأمي والمحرك له إذا ما اشتمل على نص إلهي ، وبذلك سيكون لدى العرب كما عند اليهود والنصارى كتاب مقدس يتلونه للعبادة ، وبذلك سيكون له شريعة سماوية يسلكون بها سبل النجاة (٢) .

ولكن (در منغم) يعود صراحة إلى ذكر الملك في صورته الأصلية التي روتها بعض الأحاديث الصحيحة بأنها ملأت الآفاق فيقول : وقف محمد ينظر إلى الملك الذي بدا في صورة بشر في آفاق السماء ، ثم جعل يصرف وجهه عنه في آفاق السماء مبهوراً فلا يرى غير ذلك ، ثم يصرف وجهه مرة أخرى فلا يرى في جميع الجهات غير الملك ثابتاً منيراً ، فالملك في كل مكان مستقيم هاديء جالس على عرش من نار ناظر إليه مع صمت (٣) .

(١) من كتابه : حياة محمد ، وفيه ضلالات وأباطيل وشطحات وتلفيق بين روايتي : ما أنا بقارىء ، وماذا أقرأ .
(٢) من كتابه : حياة محمد ، فى أماكن متفرقة .
(٣) قارن بين كلامه وبين الاحاديث الصحيحة الواردة فى بدءنزول الوحى تجد الفرق واضحا .

وفي حديث (در منغم) عن القرآن يقول : ومن حسن التوفيق أن أوحي إلى محمد بأن يكون خمس الغنائم لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . وفي موقع سابق يتحدث عن تأخر الوحي فيقول : فمكث محمد خمسة عشر يوماً لايحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أحزنه مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به الناس . . ثم جاء صاحبه السماوي ودوت أذناه ، وطبع في قلبه بعض منسجم الآي مما فيه سكينة له وجواب عن الأسئلة الحادثة :

« الحَمْدُ لله الّذي أنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ولَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً » . . (١) .

وهكذا تستبين أنماط متعددة للوحي الإلهي بدءاً من الرؤيا الصادقة إلى استقلال الوحي عن طريق حامله جبريل عليه السلام ، وقد كانت الصور صافية في جلها ، مشوشة في بعضها مما يضع القاريء في أطر من التردد والشك تارة وفي مجال اليقين والحقيقة تارة أخرى .

مواقف المستشرقين من الهجرة النبوية

إذا كان من تطلعات المستشرقين الهامة تناول شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام بالدراسة والتحليل على نسق تاريخي وأدبي مستحدث فإنهم استطاعوا أن يقدموا للمكتبة الاستشراقية العديد منها .

ولقد كانت اهتمامات هؤلاء المستشرقين تتركز في أحيان

(١) المصدر السابق أيضا .

كثيرة حول السيرة النبوية ، وتناولوا منها جوانب متعددة من حياة الرسول بدءاً من ولادته وحتى وفاته بل وما بعدها .

والهجرة النبوية قضية بارزة ، وجانب هام في حياة الرسول ومسار الإسلام . ولا تبدو أهميتها من أنها مرحلة أساسية من مراحل الدعوة الإسلامية وحسب وإنما في الآثار التي خلفتها على صعيد الجزيرة العربية أولا وعلى صعيد الحضارة الإنسانية ثانياً.

ويمكن أن تبرز هذه الأهمية في النقطتين التاليتين :

١ — إجماع المستشرقين والمستعربين على اختلاف اتجاهاتهم ومنطلقاتهم وأهدافهم على ثبوت حادثة الهجرة وتميزها والحديث عنها بالأهمية التي تستحقها .

٢ — إدراك الهجرة النبوية على أنها مرحلة مصيرية عالمية أخذت أهميتها من آثارها العالمية التي حدثت في تاريخ الإنسانية فيما بعد .

وعلى الرغم من تعثر بعض الباحثين المستشرقين وأباطيلهم في جزئيات من حوادث وأخبار الهجرة فإن من الثابت تسجيل إعجابهم المتزايد وتقديرهم الكبير لهذه الحادثة الفريدة في تاريخ الهجرات .

١ — بقاء الرسول في مكة بعد الاطمئنان على هجرة أصحابه :

يقول اتين دينيه (١) : أما الرسول وقد اطمأن إلى مصير المهاجرين في مكة مع صاحبيه أبي بكر وعلي . حقيقة أنه لم يكن

(١) من كتابه : محمد رسول الله .

يجهل ما يحيط به من أخطار ، غير أنه – رغم إلحاح أبي بكر – أراد أن يحاول محاولة أخيرة لإقناع بعض مواطنيه باقتناع الإسلام، والهجرة إلى حيث يجدون الأمن والطمأنينة .

٢ – روايات عن خروج الرسول من بيته :

يقول : ارفنج (١) : هناك روايات كثيرة تدور حول خروج الرسول من بيته بعد أن التف ابن عمه المخلص (علي) في بردته ، وأخذ مكانه في فراشه ، ولكن أشهر الروايات تثبت حدوث معجزة ، فقد فتح محمد الباب في هدوء ، وكان القرشيون قد رابطوا أمامه وامتدت يده بحفنة من تراب نثرها على رؤوسهم وانسل من بينهم فلم يروه ، وقد جاء ذكر ذلك في السورة الثلاثين (٢) من القرآن :

« فأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونْ » .

وهناك رواية أخرى محتملة الحدوث تقول : ان محمداً قفز من فوق حائط خلفي وساعده خادم له على النزول بأن أحنى له ظهره فاتخذه سلماً ، واستطاع محمد النزول ومغادرة البيت (٣) .

٣ – سراقة لم يؤخر عملية الهجرة :

ويتفق المستشرقون : دينه ، وحتّى ، وارفنج على تأييد حادثة سراقة وأنها لم تقدر على تعويق الهجرة . فيقول ارفنج :

---

(١) من كتابه : حياة محمد ·
(٢) هى السورة السابعة والثلاثون ·
(٣) رواية مكذوبة لا توجد فى المصادر العربية · مع ملاحظة أنهذه التعليقات وغيرها مأخوذة من (فضل الهجرة) فى الكتب المشار اليها ·

لم يبتعدا (الرسول وأبو بكر) كثيراً حتى فوجئا بكوكبة من الفرسان يتزعمهم سراقة بن مالك (١) . . ولكن المهاجرين عاودا رحلتهما إلى أن وصلا إلى قباء . . أما دينيه فيصحح الرواية الأولى بما ذكره من قول سراقة نفسه : ومكثت قليلا ثم قمت إلى منزلي فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي ، وأمرت عبداً لي أسود ذا قوة وجرأة أن يسوق بعيراً لي إلى هذا المكان وينتظرني به ، ثم خرجت من باب خلف البيت منحنياً متخفياً وقد حططت بزج الرمح في الأرض لئلا يرى بريقه أحد ، وإنما فعلت ذلك كله لأفوز بالجعل ولا يشاركني فيه أحد .

٤ ــ **أما في الغار فقد ذكر دينه** بأن أبا بكر دخل وحده ليفتش في سائر الأركان حتى يستيقن من أنه ليس هناك وحوش ضارية أو زواحف خبيثة ، ثم جمع ما كان في الغار من الأحجار والصخور المؤذية وحملها في طرف ثوبه ورمى بها على جانب الطريق ، ثم عمد إلى الجحور التي من شأنها أن تخفي حيات أو حيوانات أخرى شريرة فسدها بخرق من ثيابه ، وبعد أن انتهى من توفير كل وسائل الراحة في الغار أدخل رسول الله الذي ما لبث أن استغرق في النوم مسنداً رأسه على فخذ صاحبه وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماسة فتغلبت على شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسري في دمائه ، وتفل الرسول على الجرح المسموم ومسحه قليلا فزال الألم والتورم في الحال ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه من غنم قريش ثم يريحها عليهما إذا أمسى

---

(١) سراقة خرج وحده .

في الغار فيزودهما باللبن واللحم ثم يرجع بغنمه في الصباح فيمر على آثار عبد الله ليمحوها .

٥ ــ دخول الرسول إلى المدينة ظافراً :

ويتفق المستشرقون الثلاثة على احتشاد الأنصار لاستقبال الرسول ، والتفاف المسلمين مهاجرين وأنصاراً حوله ، وقيادته لهم قيادة الظافرين فيقول « حتى »(١) وجاءت الهجرة فاتحة دور جديد من أدوار حياة النبي فهي آخر الحقبة المكية وأول الحقبة المدنية . هجر محمد بلدته التي نشأ فيه مهاناً مرفوضاً وقدم « يثرب » زعيماً مكرماً ، وهنا أخذ يصرف عنايته إلى الوصول « بيثرب » إلى وحدة سياسية نظامية ، وأخذ يلتفت إلى أمور السياسة وما تقتضيه من توحيد صفوف المسلمين .

ولكن « دينه » يعطينا تفصيلات أكثر وتحليلا أدق فيقول : وفاجأته ساعة الصلاة وهو يمر بأرض بني سالم بن عوف فترجل ، ولأول مرة قام بصلاة الجمعة في دار الهجرة ، وقد أم جموع المؤمنين الذين اصطفوا وراءه خاشعين ، وانتهت الصلاة فالتفت إلى المسلمين يعظهم ، ثم اعتلى ناقته ودخل يثرب دخول المنتصر يحف به الشعب الذي ثارت في نفسه حماسة متقدة . وقد تأثر محمد تأثراً عظيماً لذلك الاستقبال الأخوي الذي حظى به المهاجرون لدى هؤلاء الأتباع الجدد ، ولكن بصيرته النفاذة إلى ما تنطوي عليه النفوس جعلته يعمل على توثيق رباط الصداقة المؤثرة كي تستطيع مقاومة روح التنافس .

---

(١) من كتابه : تاريخ العرب ١ـ١٦٠ .

أما « أرفنج » فلا يعدو وصفه الحقيقة التاريخية وشيئاً من تفصيلاتها فهو يقول : بركت ناقة محمد (القصواء) وأبت الاستمرار في المسير ، ورأى الرســول أن يمكث في قباء حتى يتأهب لدخول المدينة . . وقرر دخولها في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول .. وقد التف سبعون فارساً يتزعمهم بريدة حول الرسول كحرس له ، وعلى مسافة قليلة من المدينة احتشدت جماعة من المسلمين الجدد وقفوا تحت أشعة الشمس المحرقة وسط التراب الثائر ينتظرون قدوم الرسول .. وهكذا دخل محمد الذي هاجر من وطنه وعلى رأسه أكليل من الغار ، وكان استقبال الناس له استقبال فاتح عاد منتصراً لا استقبال مهاجر يلتمس ملجأ . .

٦ — أهمية الهجرة :

ولقد تعددت الهامات الهجرة عن أهميتها وتناولها جل المستشرقين بأقلامهم قريبين من الحقيقة تارة ومجانبين لها تارة أخرى . مجملين الحديث عنها حيناً ومفصلين الكلام عليها أحياناً أخرى .

(أ) الهجرة أعظم حادثة في السيرة النبوية :

فقد نوه « دينه » عن أهمية الهجرة بقوله : وقد تعجب لأول وهلة لذلك الاختيار ولكن دهشتنا تزول إذا ما علمنا أنه لم يكن في حياة الرسول حادث أعظم شأناً وأجل أثراً في ذيوع الإسلام وانتشاره بين ربوع العالم من حادث الهجرة . فلو لبث محمد بمكة حتى و لو كتب له في النهاية الانتصار على أعدائه

لمكث الإسلام فيها معه . . ولو أن الرسول لم يؤذه مواطنوه ولم يخرجه قومه لما استطاع أن يؤدي رسالته العالمية ولما سطع نور الإسلام على وجوه المعمورة .

(ب) الهجرة مرحلة هامة في الدعوة الإسلامية :

وكذلك فإن « أرفنج » يتحدث عن نواح في أهمية الهجرة في الدعوة الإسلامية والحماسة لها وتكريمها فيقول : هذه الحماسة في الإقبال على الإسلام ، وهذه العروض التي تقدم بها أهل المدينة جعلت محمداً يطلق عليهم اسم « الأنصار » فصاروا يعرفون بهذا الاسم . . وفي مكان آخر يقول : هذه هي قصة الهجرة التي اتخذت مبدأ للتاريخ العربي والتي يقدسها المسلمون وكانت الهجرة في سنة ٦٢٢ ميلادية .

(ج) الهجرة وآثارها التشريعية والتنظيمية :

ولكن « حتى » يفصل الحديث عن جوانب أخرى في أهمية الهجرة من حيث التشريع وتنظيم الدولة المسلمة . والعلاقات الداخلية والخارجية ، والآفاق العالمية التي اتسعت لها . . فيقول : وفي هذا العهد المدني تم تنظيم الإسلام وحدة عربية قومية ، وقطع النبي الجديد صلته باليهودية والنصرانية (؟) وعين يوم الجمعة للصلاة الجامعة ، واعتيض بالآذان عن النفخ بالبوق وقرع الأجراس ، وجعل رمضان شهراً للصوم ، وحولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة ، وأقر الحج إلى الكعبة ولثم الحجر الأسود . .

ومن هذا المجتمع الديني في المدينة نشأت فيما بعد دولة الإسلام وبقي الدين أساس اجتماعها كما كان للمهاجرين والأنصار ،

وهذه أول محاولة في تاريخ الجزيرة لتنظيم الجماعة العربية تنظيماً غير مألوف من قبل ، قائماً على أساس الدين لا أساس الدم كما كان في الماضي ، ومرتبطاً بالله الواحد الفرد ممثل الوحدة السياسية . . ولم يكن لهذا المجتمع الجديد كهنوت أو زعامة دينية ذات رتب أو بلاط مركزي للدين كالمجلس البابوي في النصرانية .

(د) من البعد العربي إلى أبعاد عالمية :

١ – يقول (ديســون) الفرنسي في كتابه : ماذا يجب أن تعرف عن محمد والإسلام : وبهجرة النبي إلى المدينة ينقل الإسلام من دين مستضعف إلى دين تؤيده عصبة قوية وتحميه سيوف ماضية وقلوب جريئة وأفئدة تغمرها الحماسة تريد أن يعلو هذا الدين الجزيرة كلها . وأن يعم هذا الخير العرب كلهم من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، لقد كان رجالات المدينة فرقاً وأحزاباً ، فوحد الإسلام بينهم ، وأقر العدل في ربوعهم والإنصاف في مواطنهم فلم لا يتوفر هذا الخير على الجزيرة كلها . . ؟ لم لا ينالها مثل ما نالهم فتصبح الجزيرة قوة ويصبح العرب شيئاً خطيراً . . ؟ إلى أن يقول : فاتبعته معظم الجزيرة العربية ، وبلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض ، ذلك أن الإسلام لم يكن ديناً للعرب ، وإنما هو دين الإنسانية من أقصى الأرض إلى أقصاها . .

٢ – ويتطلع « توماس كارليل » الانكليزي مؤلف كتاب الأبطال إلى قرن واحد بعد الهجرة النبوية ويصف امتداد الإسلام في الدنيا فيقول : وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح

لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة. وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة .

٣ ـ وأما (إميل در منغم) الفرنسي مؤلف كتاب : محمد فإنه يستبق الهجرة بالحديث عن بيعة العقبة الثانية موضحاً أن رجال العقبة كان لهم خطرهم في تغيير العالم وتاريخه فيما بعد ، فهو يقول : وكان الوقت رائعاً والساعة حاسمة ، وما علم أصحاب العقبة أنه سيسفر عن اجتماعهم هذا تغيير مجرى تاريخ العالم ، وإن لم يجهلوا خطر عملهم . . ويتابع «ر. ف. بودلي» في كتابه : حياة محمد . هذه الفكرة فيقول : إن الحالة العالمية الوحيدة التي ترتكز على الدين فقط كانت ترى الحياة في هذه اللحظة واحة المدينة الخضراء ، كان اليوم الثاني من يوليو سنة ٦٢٢ بعد الميلاد ، وقد عرف منذ ذلك الوقت بالهجرة ، وفي خلافة عمر بعد موت النبي تقرر أن يكون هذا اليوم مبدأ التاريخ الإسلامي ومنذ ذلك الوقت أصبح المسلمون في جميع أنحاء الأرض يؤرخون بهذا اليوم .

٤ ـ وبتتبع الباحث المؤرخ لجوانب عديدة من عالمية الهجرة النبوية ، يذكر « فيليب حتّي » الأميركي في كتابه : تاريخ العرب ما يلي :

فلم تكن الهجرة إذاً قراراً فجائياً بل خطة مدبرة استغرقت سنتين . . ثم يقول : وجاءت الهجرة فاتحة دور جديد من أدوار حياة النبي ، فهي آخر الحقبة المكية وأول الحقبة المدنية . إلى أن يقول : ومن المدينة امتدت أُصول الحكم الإسلامي إلى كل

نواحي الجزيرة وانتشرت من بعد في معظم أقطار آسية الغربية وأفريقية الشمالية . . واستطاع فوق ذلك أن يضع حجر الأساس لامبراطورية ما لبثت أن حوت بين أطرافها المترامية أجمل مقاطعات العالم المتمدن في ذلك العصر .

ثالثا ـ دراسة هذه المواقف

ويستطيع الباحث بعد تتبعه المواقف الاستشراقية الإيجابية والمعتدلة أن يستلهم معاني وعواطف شتى ، وأهدافاً ومنطلقات مستورة وواضحة ، يعرضها على موازين نقدية تقويمية لتأخذ مكانها بين الحقائق العلمية والتاريخية ، والمجالات العاطفية والانفعالية . وليس من عمل الدارس أن يتجه بانفعالاته السطحية المقترنة بالإعجاب أو بالتحقير الفـــوريين إلى رفض العمل الاستشراقي ، أو قبوله من غير نقد ولا تمحيص . كما أنه ليس من شأنه أن يسرد أقوالا معتدلة ، ويذكر مواقف منصفة على سبيل الأخبار وإن كان أحياناً يؤلف فيما بينها ، ويجمع معانيها ضمن فصائل متماثلة ، ثم يربط فصائلها ضمن روابط متماسكة متجانسة .

وقد نبهت في مقدمة فقراتي وأثناءها وبعدها إلى شيء من التحليل الدرسي الموضعي الذي يمكن اعتباره جزئيات دراسية ، وسوانح ترصد هنا وهناك .

ولا جرم أن البحث يستلزم نظرة شاملة ، وأفكاراً كلية جامعة يمكنها أن تفسر أحداثاً لا في عمل المستشرقين في شخصية الرسول وحسب وإنما تنسحب إلى جميع أعمالهم الفكرية في دراسات شخصيات الإسلام وأبطاله .

ولهذا فإن هذه الدراسة تضعنا أمام الأمور التالية :

١ ــ مقدرة بعض المستشرقين على إبراز حقائق إنسانية وصفات نبوية من خلال مطالعاتهم تاريخ غيرهم ، يتباينون معهم في الفكر والعقيدة والبيئة يتأملون في جوانبها من خلال التاريخ عامة وسيرة الرسول خاصة ، وهذه الحقائق كانت أقرب إلى الحيدة والتجرد ، ومن ثم أدعى إلى تبنيها من قبلهم على وجه حماسي مندفع أحياناً .

ويكشف هذا الأمر عن رجوع حقيقي إلى مصادر الترجمة الثابتة ، وتفسير منطقي معقول بلجوانبها وإيمان عميق بحرية البحث . أياً كانت نتائجه المادية والأدبية .

ولقد أدت بعض هذه الاستطلاعات إلى حرمان كنسي وطرد من رحاب المغفرة الكهنوتية وخروج على المنهج التغريبي الذي خطط له دهاقنة الغربيين المستعمرين ، وقد حدث هذا لكثير من الكتاب من أمثال : رينان وتولستوي ، وهيدلي ، ولورافيشيا وغيرهم .

٢ ــ منهجة السيرة النبوية في قواعد خاصة ومعالم محددة :

منها : نقول من مصادر السيرة القديمة في القرآن والحديث والتاريخ ، ومنها : تردد ونساؤل في المسائل المشكوك فيها وترجيح آراء مظنونة ضمن لغوية وفكرية سليمة . ومنها : بيان التأثرات والتأثيرات المتبادلة والمتفاعلة في ذاتية الشخصية النبوية وفيمن حولها . ومنها تحليل الشخصية المحمدية إلى عناصرها ومقوماتها وتبيان الخيرات والمنافع في كل عنصر فيها . ومنها :

تأليف هذه العناصر في شخصية متكاملة منسجمة تؤهلها لحمل الأمانة الإسلامية إلى الناس .

وقد تأثر بالمنهج الاستشراقي في دراسة الشخصية النبوية كتاب مسلمون منهم العقاد ، والزيات ، والمازني ، وهيكل . . ومن بعدهم على تفاوت فردي فيما بينهم ، وعلى اقترابهم من الحق وبعدهم عنه ، ولكن مع هذا فإن أصول هذا المنهج سبق إليها المسلمون في كتب التراجم والرجال .

٣ ـ تقدير المستشرقين وإعجابهم بأبعاد شخصية الرسول المتعددة ومدى آثارها في عالم الفكر والواقع في العصور الوسطى والحديثة ، وهو إعجاب بشخصية بشرية وعبقرية إنسانية ، وتقدير لحقيقة النبوة عند بعضهم يكشف عن تحررهم من رواسب الطائفية والتطرف ، وربما دفعهم ذلك إلى استكناه الأسرار النبوية في تأثير شخصية الرسول على الآخرين ، وتوحيد العرب والمسلمين أمة متميزة رائدة ، في قيادة الإنسانية المتخلفة إلى ميادين حضارية راقية ، وتوظيف صفاته الشريفة كمثل أعلى بالصورة الحية في شخصيات أتباعه المسلمين .

وإن اهتمام المستشرقين بهذه المواقف من سيرة الرسول العطرة لا يدنو منه اهتمام يمكن أن يساويه في دراسة أي موضوع إسلامي آخر ، بل وإن هذه الدراسة لتفوق حجماً ونوعاً دراسة أية شخصية إنسانية أخرى .

٤ ـ البعد الإنساني والحضاري

إن هذه المواقف الإيجابية دفعت كثيراً من المستشرقين إلى بذل جهود فكرية ومادية ، وإنفاق أزمنة طويلة ومضنية ،

في سبيل الإحاطة بالقدرات المعلومة والمجهولة في حياة الرسول . والمستشرقون ـ وإن كانوا مولعين بكل ما هو شرقي وعربي ـ أدركوا بدراستهم شخصية الرسول أبعاد الفتوحات الإسلامية العقلية والعسكرية وأنها كانت خيراً ونعمة للانسانية حتى صرح بعضهم بأن معركة (بواتيه) عام ٧٣٢م التي هزم فيها العرب الأندلسيون أخرت حضارة أوربا قروناً .

وهم على تعدد استنتاجاتهم من أن الرسول مصلح اجتماعي ، وعبقري نابه ، أو نبي مرسل يعدون أن حياته إحدى المتغيرات العالمية التي غيرت خارطة العالم ، وأرست فيه قواعد العدل والرحمة والتشريع والأخلاق . .

يقول (ليبري) عن العرب عامة : احذفوا العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوربا عدة قرون ، فقد لمع العرب في كل الميادين العلمية ، وكان العلماء في كل الميادين يقومون بقسطهم في البحث ، لم يدعوا باباً إلا طرقوه(١) .

٥ ـ التأني في الحكم على مواقف نبوية من خلال دراسات استشراقية :

وهذا أضعف الإيمان ، ولكن الواجب الأول هو الحذر من السير وراء أقوال معسولة ، وآراء مغرية ، ومواقف خادعة يمكن أن تخدع عقول البسطاء من المسلمين ، وتؤثر على اقتناعهم بأن المستشرقين يمدحون ويثنون على صفاته ، ويعدون شخصيته في مقدمة المصلحين وعباقرة العالم .

---

(١) شبهات التغريب ص ٣٧٣ .

إن هذه الخدع الفكرية والحيل الاستشراقية جديرة أن ينتبه إليها المثقفون ، فقد تظاهر بعضهم بالإسلام وتزيا بزي العلماء حين زار العالم الإسلامي كما فعل جولدتسهر ، وتقدم آخرون ببحوث مجمعية لينخرطوا بين المجمعيين فتصبح آراؤهم موضع القبول والرضا ، وأثبتت الدراسات أن ربع أعضاء المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت من هؤلاء المستشرقين ، والأزمة الفكرية التي اختلقها (مرجليوث) في اصطناع الشعر الجاهلي ، والفساد العقائدي الذي نشره (لوي ماسينون) حول القرآن وعامية العربية في القاهرة وغيرها ما تزال آثارها ماثلة للعيان .

فلا يفرح مسلم من ثناء مستشرق على الرسول ويعد هذا كسباً للعلم والتاريخ فإن هذا قد يكون مرحلة من مراحل التغريب في العقيدة والفكر وأسلوباً من أساليب المكر والخديعة .

ونحن لا ننسى أن (زويمر ولامانس) مثلا قد وصفا الرسول بالقدرة الفائقة على الاقناع والتأثير على الآخرين ، وأن عبقرية محمد كان لها مجالها الإنساني ، لأن هذين المستشرقين وأمثالهما يريدون أن يصلوا بالقاريء إلى تجريد الرسول من النبوة ، ومن مزية القرآن أنه وحي من عند الله تعالى ، حتى أن معظم من وصف الرسول بالقيادة المتفوقة والعبقرية الفذة والإصلاح الاجتماعي إنما يسعون إلى قصر البشرية على الرسول ، وقصر الرسول على البشرية ، ووضعه في مجال الآدمية ليس غير . وأحياناً يبرزون صفة قيادية للرسول في فصل أو عدد من الفصول ولكنهم يجردونه منها في فصل آخر . كما فعل (در منغم) في كتابه : حياة محمد .

وأحياناً يعدون الرسول من عباقرة العالم ومصلحيهم ، بل ويرفعونه إلى مقدمتهم ، ثم يوعزون بأن هذه العبقرية كان لها دورها في العصور الوسطى على أساس ديني وجداني ليس غير كما فعل (كارليل) في كتابه الأبطال . .

وكثيراً ما اتفق لفيف منهم على خطة جماعية : يثبت واحد منهم قضية جهاد الرسول وأنه حكم الجزيرة العربية بالسيف والقوة والتحكم ، ويثبت آخر أن جهاد الرسول لم يكن قضية أساسية في حياته ، ولم يكن يلجأ إليه إلا دفاعاً وحماية ، وهو لهذا حكم مرحلي لا يجوز أن يطبق في حياة المسلمين بعد وفاته .

ومثل هذا في قضية الحكم ، والزكاة ، والتشريع وغيرها من الأمور التي لا تحاول أن تشكك المسلم بدينه ونبيه وحسب ، ولكن لتقطع الصلة الدينية والانتماء للإسلام ، وبين المسلم ونبيه أيضاً .

و في ختام هذه الدراسة أجدني محقاً أن أقدم جزءاً من فقرة نقدية في بحث كنت قد نشرته (١) تحت عنوان « دراسات المستعربين » وموضوع هذه الفقرة هو :

الاتجاه النقدي التقويمي :

و يترافق مع هذا الاتجاه موازينه العامة و الخاصة ، أما الموازين العامة فهي مباديء نقدية عامة تعد أدوات التقويم ويتفق على قبولها المفكرون والباحثون مثل : عدم تحكم الاهواء والرجوع بالخبر إلى مصدره في الحديث والتاريخ والأدب ، واستنباط

(١) المجلة العربية : السنة الرابعة ، العدد الثالث : عام ١٩٨٠

الحقائق من الدراسات الموضوعية لا من أفكار مسبقة ورواسب موروثة ، وأما الموازين الخاصة : فهي الوسائل التي تتأتى للباحث من خلال دراساته الطويلة لفرع من فروع الثقافة الإسلامية مثل : نقد الحديث ـ القراءات ـ فقه اللغة ، ولا بد أن تكون هذه الموازين قواماً لأصالة علمية وصلة خاصة (روحية ومادية) معاً بالمادة التي تخصص بها ، وبعبارة أخرى لا بد أن تكون للباحث مميزات خاصة كما هي للناقد حتى يكون العمل الفكري مستقيماً . . ثم يقول :

فالاتجاه التقويمي لا يقبل ، كما لا يرفض قولاً أو رأياً حتى يعرضه على حقائق الإسلام وأصول النقد التي لا تتعارض مع مفاهيمه ومنطلقاته ، فما قبله الإسلام وضعه العلماء في موضعه ، وما رفضه الإسلام والأصول النقدية نبهوا إلى أخطائه وأخطاره وردوده غير آسفين عليه وهذا موقف معروف لعلمائنا الأقدمين في الفقه والحديث و التفسير والتاريخ و اللغة . . فمن حق المعتدل بآرائه أن ينعت بأنه معتدل الرأي ، ومن حق المنصف أن لا يساء إليه ، ومن حق المتجني أن يوسم بميسم الانحراف والخلط والتكذيب . فإذا قرأت مقدمة « مفتاح كنوز السنة » لأحمد محمود شاكر ، وجدت إكباراً وثناء للعمل الذي قام به (فنسنك) و لكنك إذا قرأت موضوعاً للمستشرق نفسه في دائرة المعارف الإسلامية وجدت أحمد محمود شاكر وغيره معلقاً ومعقباً ومصححاً ومقوماً فهذا شيء وذاك شيء آخر .

وإذا قرأت في كتاب « أوروبا والإسلام » للدكتور عبدالحليم وجدت أيضاً الاتجاه نفسه ، فالرأي المصيب والقول الحق يضعهما موضعهما من القبول ، أما الرأي الزائف والفكرة المشوهة

والتحريف والاختراع فلا يسع المؤلف إلا بيان الحق وإيضاح الموضوع ، لأن هذا شيء وذاك شيء آخر . وإذا أخذت تقرأ في مقدمة « مذاهب التفسير الإسلامي » لجولد تسيهر وجدت مترجمه الدكتور النجار يقول : (وهو عمل مبتكر) ولكنك تجد أكثر من خمسين موطناً يرد فيهما على المؤلف لا بالتعنيف والشتم ، وإنما بالدراسة المنهجية لأن هذا شيء وذاك شيء آخر . .

وهكذا وقد قامت دراسات نقدية من قبل علماء مسلمين من مثل : السنة ومكانتها في الإسلام ، والرد على الأدب الجاهلي ، وما يقال عن الإسلام ، والإسلام حقائقه وأباطيل خصومه ، والإسلام والحضارة الإسلامية ، والمستشرقون والدراسات الإسلامية . . وغيرها من المقالات العديدة في مجالات إسلامية وعربية وعالمية .

وبدهي أن بعض هؤلاء وغيرهم يمكن أن يتجنبهم الصواب في رأي أو دراسة ، كما يمكن أن تند عنهم أمور لها أهميتها في تعميق دراستهم والإحاطة بها .

الباب الثـانى :

مواقف المستشرقين السلبية والمغرضة

أولا : من شبهات المستشرقين ومطاعنهم

ثانيا ـ من أخطائهم المقصودة وغير المقصودة

ثالثا : من تخبطاتهم فى دراساتهم وتعارضها

الباب الثاني :

مواقف المستشرقين السلبية والمغرضة

وإذا عثر الفكر الإنساني على مواقف استشراقية إيجابية معدودة عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام فإن مواقف سلبية يصعب تعدادها تعثرت فيها آراؤهم ونظراتهم . وليست هذه المواقف من عثرات الرأي والفكر وحسب ، وإنما هي شبهات أمعنوا في تصنيفها وبثها بين المثقفين عن طريق الإنتاج الفكري المكتوب والمنطوق .

بل ، ومن الحق أن نقول : لم تكن تلك المواقف عثرات ولا شبهات يمكن لصاحب الفضيلة أن يرجع عنها ، وللملتزم بالحق أن يؤوب إليه ، وإنما هي مطاعن حاول أربابها أن يجعلوها حقائق ثابتة ، وأموراً مسلمة لا تقبل الجدل والنقاش بل ، الدفع والرد .

وتتعاظم المواقف السلبية خطورة ، وتتفاقم شرورها إذا تأكدنا أن قدراً كبيراً من المواقف الإيجابية السابقة تتجرد من معاني الخير فيها ، وتتعرى من مناحي الحق في مضامينها ليجعلها أصحابها طعماً يدسون فيه السم يزدرده الجاهل والمنتحر على السواء .

ولقد حظيت مطاعن المستشرقين وشبهاتهم باهتمامات كبيرة

لدى العلماء والباحثين المسلمين ، وكانت حركة فكرية إسلامية نشطة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين تناهض تلك الشبهات والمطاعن التي عكف على افترائها المستشرقون فترة طويلة .

ومع أنه يصعب الفصل بين الشبهة والطعن في الفكر الاستشراقي فإن القول الحق : أن الشبهة ترمي إلى غرض بارز أو خفي : هو الافتراء على الإسلام ونبي الإسلام .

ولا ريب أن علماءنا وباحثينا قد قدموا دفوعاً علمية سليمة ضد المطاعن التي لونها المستشرقون بألوان الخداع اللغوي أو الفكري أو المنهجي .

وكانت هذه الدفوع على جميع المستويات الفكرية المتعددة : فمعظم الموضوعات التي تناولها المستشرقون عن الرسول وغيره في دائرة المعارف الإسلامية كان يواكبها تعليقات وتعقيبات مدروسة ومحضرة ، وأحياناً مقالات ختامية تتحدث عن الوجهة الإسلامية ، كما فعل أحمد محمود شاكر ، والدكتور محمد البهي والشيخ محمد عرفة ، والدكتور محمد يوسف موسى وغيرهم . ومثلها أيضاً في الكتب المترجمة إلى العربية حيث ضمنت حواش وتعليقات على كثير من الشبهات التي يراد لها أن تسود في الفكر العربي الإسلامي ، ومثل هذا ما حدث في كتب محمد ، والرسول ، حياة محمد . .

وفي نطاق أوسع كتبت مقالات عن الاستشراق والمستشرقين في مجلات عربية وإسلامية تناولت قضايا الإسلام من وجهة النظر الاستشراقية ، كما فعل العقاد في مجلات الأزهر والهلال وسبقه شكيب أرسلان في مجلتي (الفتح والمنار) وعاصره محب الدين الخطيب في مجلتي الأنصار والفتح . وفي نطاق البحث المستفيض

كانت تؤلف بعض المؤلفات المختصرة والمطولة عن جوانب من أعمال المستشرقين يردون بها على مطاعنهم ، ويكشفون عن شبهاتهم ، كما فعل ذلك الدكتور الهراوي في كتاب المستشرقون والإسلام .

وما تزال الأقلام الإسلامية تنشط والأفكار السليمة تتبلور وتدحض افتراءات جديدة أو قديمة تنشرها مجلات إسلامية وعربية وثقافية .

وهكذا فإن الهجمة الفكرية الاستشراقية أبانت عن قدرة المسلمين على ردها في الوقت الحاضر كما فعلت ذلك في العصر الأموي والعباسي حين تنافست الحضارات العربية الإسلامية مع الحضارات الفارسية والرومانية والهندية .

وما أشبه اليوم بالبارحة ولكن مع الفروق الكثيرة التي ترتبط بمنشأ الصراع وطبيعته ونتائجه . ومن المؤسف حقاً أن ترسف عقول بعض المستشرقين بقيود التبشير فيكونون الناطقين باسمهم وبدعوتهم . ومن التجني على الحقيقة أن تلصق بالرسول افتراءات لا تستند إلى أوهى الأدلة العقلية والتاريخية . ومن الزيف على للتاريخ و الفكر أن ينأى الباحثون في التاريخ و النابهون في الفكر عن رسم الصورة المحمدية الكاملة كما ينبغي أن ترسم بأبعادها النبوية ومقاييسها الإنسانية المتفوقة .

وهل من تجن على الحقيقة أشا من أن يتنكروا للمنطق والبرهان ويحكموا حسب أهوائهم وميولهم ؟ بل وهل تزيف التاريخ الإنساني ، و الفكر البشري بأكثر من تشويههم الصورة المحمدية في أنظار المسلمين وغير المسلمين ؟

دعك من أولئك المفذعين المفحشين الذين يروون غلهم بالشتائم والسباب ، ودعك من الجهالة التي تحكمهم والحقد الذي يدفعهم إلى التطاول والبذاءة .

دعك من هؤلاء وهؤلاء وتأمل في أعمال عمالقة المستشرقين الذين جروا وراء رواسبهم القديمة ، واندفعوا من منطلقات مغرية وغفلوا عن أمانة العلم ومسؤولية الحقيقة وقول الحق .

لقد تخبطت دراساتهم ، وتناقضت أقوالهم ، ووقعوا في أخطاء وخطيئات كثيرة ومتباينة حتى أنه لم تبحث قضية تتصل بالإسلام أو بالرسول من جانب إلا ونقضه باحث آخر منهم . ولم يثبت مستشرق جانباً فيهما إلا ونفاه آخر وهكذا . .

ولهذا لا بد من وصف هذه المواقف على تفصيل يفسر الأعمال والمنطلقات التي طرحوها حول السيرة النبوية العطرة .

ويمكن وصفها كما يلي :

١ – شبهات المستشرقين ومطاعنهم .

٢ – أغلاطهم وأخطاؤهم المقصودة وغير المقصودة .

٣ - من تخبطاتهم وتناقضاتهم .

من شبهات المستشرقين ومطاعنهم

١ ـ منشأ الشبهات والمطاعن وأسبابها .

٢ ـ طبيعة الشبهات والمطاعن ونوعيتها .

٣ ـ أغراض الشبهات والمطاعن وأهدافها .

٤ ـ محاور الشبهات والمطاعن ومرتكزاتها .

٥ ـ أمثلة منها :

(أ) شبهات آدمية .

(ب) شبهات نبوية .

(ج) شبهات شرعية .

أولا : من شبهات المستشرقين ومطاعنهم

اختلق معظم المستشرقين شبهات حول الرسول والإسلام ، وزينوها أمام أعين الناس وأفكارهم وغلفوها بلباس من المنهجية الخاصة وغزوا بها العالم الإسلامي في مؤسساته الفكرية ومناهج التربية والتعليم والمؤلفات الاستشراقية التي زخرت بترجماتها المكتبة العربية الإسلامية .

وكان العديد من قادة الفكر العربي الإسلامي قد تتلمذوا على أيدي هؤلاء المستشرقين عن طريق إيفادهم إلى خارج بلادهم واستقدام أعلام المستشرقين إلى البلاد العربية والإسلامية ليعملوا في مؤسساتها الفكرية تخريباً ودساً وافتراء .

ولقد غذت المؤسسات الاقتصادية العالمية والتجمعات الدولية شبهات المستشرقين ، ومدت إنتاجهم الفكري بالأموال الطائلة ، ونشرت هذا الإنتاج باللغات المحلية ومن ثم عمدت إلى ترجمته إلى اللغات الأخرى ، ومنها اللغة العربية .

وكانت مقومات الفكر الاستشراقي وأبعاده تقوم على الشبهات المتعددة التي لم تذر ناحية من نواحي الإسلام ، ولاجزئية من جزئيات الثقافة العربية الإسلامية الهامة إلا وتناولتها بالمعالجة والنشر وبخاصة تلك الشبهات والمطاعن التي ألصقوها بشخصية الرسول من قريب أو بعيد ، وكلما أمعن المستشرق في عرض شبهاته ، وبالغ في طرح مطاعنه ازداد لدى الدوائر التبشيرية

و الاستعمارية تقديماً ، و تكريماً واتسمت عروضه ،بآفاق عالمية وإنسانية تعقد لها المؤتمرات الاستشراقية العديدة .

وربما اتخذ بعض الطاعنين منهم مناصب رسمية ليتمكنوا من القيام بمهمتين متداخلتين : **تكريس الاستعمار المادي** ، **وتغريب الفكر العربي الإسلامي** ، ومن ثم اتخذوا القيام بهاتين المهمتين أعواناً من العرب والمسلمين يبررون لأولئك الطاعنين مواقفهم الفكرية والمادية ، وقد يكونون من قادة الفكر والعلم والسياسة .

كما حدث للاستعمار الهولندي في أندونيسيا والاستعمار البريطاني والفرنسي في البلاد العربية ، وبخاصة حملة نابليون على مصر ، وحملة الفرنسيين على الجزائر والمغرب العربي .

١ ـ منشأ شبهات المستشرقين وأسبابها :

يعزو البحث الاستشراقي منشأ الشبهات النبوية إلى الأسباب العامة في نشأة الاستشراق الذي أشرت إلى عمومياته خلال البحث الماضي وبخاصة (نشأة الاستشراق وارتباطاته) ، وإلى أسباب خاصة يندرج بعضها في أسبابها العامة .

ومن الجدير بالذكر أن قضايا الإسلام التي انتظمتها شبهات المستشرقين ومطاعنهم قد نشأت لأسباب متقاربة إن لم تكن متماثلة وهي أسباب عامة نشأت عنها تلك المطاعن جملة وتفصيلا ، ومنها :

(أ) أسباب كنسية تبشيرية :

فقد ألف (المونسيور كولي) كتاباً سماه : البحث عن الدين الحق صور فيه الإسلام ونبيه بصور مشوهة يتحكم فيها التعصب والتطرف ، وقد غذت هذه الصور أفكار المستشرقين المغرضين ، فهو يقول : لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات (١) . ولكن كيف يلتمس المستشرق الحقيقة الدينية والتاريخية من خلال هذا الباطل ؟

أما (أديسون) ، فقد ادعى بهتاناً أمرين ونسبهما للرسول عليه الصلاة والسلام : أولهما : أنه اطلع على الإنجيل وأخذ منه ، وثانيهما : أن هذا الاطلاع لم يكن صحيحاً بل كان مشوهاً ، فهو يقول : محمد لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن في خياله منها إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به العرب(٢)

فبهذه وأمثالها غذى التبشير أفكار المستشرقين ، وعلى مثل هذه الانحرافات تربى العديد منهم ، فشوهت شخصية الرسول وصحابته من بعده بطعون معادية تشمل الأخلاق والعادات والكيان النفسي . وقد ارتبطت مخططات التبشير بأعمال متعددة:

---

(١) انظر رسالة«المبشرون»للدكتور محمد البهى .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٣٧

منها الإرساليات التي استقدمت إلى الشرق ، ويظهر أن أمريكا سبقت غيرها في هذا المضمار ، واستقرت في بيروت والقاهرة واستانبول ودمشق وغيرها ، ومنها مناهج كرومر ، وليوتن ، ولافتيمري ، ودنلوب ، ودار كور ، وزويمر ، وهانوتو ، ولورانس ، وجلوب من بعد ، وهي المناهج التي وضعت ووصفت من بعد بأعمال التغريب ، وأشار إليها هاملتون جب ومعه أربعة من المستشرقين في بحث مستفيض في كتاب : وجهة الإسلام ، الذي ظهر عام ١٩٣٠م (١)

(ب) سبب استعماري مادي :

فقد اعتمد الاستعمار على جهود المستشرقين الفكرية والعقائدية وأقنعوه بتشويهات لا صلة لها بالإسلام ولا بنبيه « وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق ، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزودهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار » (٢) .

وقد اتخذ الاستشراق ، وهو الاستعمار الفكري ، طريقين

---

(١) انظر شبهات التغريب ص ٢٦ والاسلام والثقافات العربية «دعاة التغريب» .
(٢) انظر الرسالة السابقة ص ١٢

لتثبيت الاستعمار ، الأول : تحقير الشخصيات التاريخية الإسلامية وفي مقدمتها شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، والثاني : تمجيد الشخصيات الاستعمارية الغازية ، وذلك بإيهام أن عناصر التفوق المادي والفكري لدى الإنسان الغربي تجيز له استعمار الأرض والناس معاً . وقد عرف العالم العربي والإسلامي في فترة الاستعمار كثيراً من رجال الاستعمار وحياتهم وبطولاتهم أكثر مما عرفوه عن حياة الرسول وسير أصحابه وبطولاتهم . والذين عاشوا هذه الفترة يعلمون ذلك حق العلم « فالاستشراق في شطريه — عاملا مع الكنيسة أو عاملا مع وزارات الاستعمار — لايستطيع أن يخلص إلى الحق ، وإنما هو يؤدي دوره في إثارة الشبهات ، وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير ومعاهد الإرساليات لخلق ظاهرة من انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم ، ولغتهم وعقائدهم وشخصياتهم » .

(ج) أسباب تجارية اقتصادية :

فقد سرق الاستعمار كثيراً من تراث العرب والمسلمين ، وتسلطت عليه مؤسسات تجارية وأخذته بأبخس الأثمان على حين كان العرب لم يعرفوا بعد قيمتها العلمية والأدبية ، ثم راحت تلك المؤسسات تنشر التراث بتحقيق من المستشرقين ، ولكنهم كانوا يختارون موضوعات ليست ذات شأن ولا قيمة فكرية ليشدوا الناس إليها ويجذبوا أنظار المثقفين المسلمين إلى أمثالها .

واحتكرت تلك المؤسسات الفكرية التجارية مطبوعات الثقافة الإسلامية ، وصارت تغدق الأموال على المستشرقين ليقوموا على تحقيقها ويشرفوا على طباعتها ونشرها ، ومن ثم ليكسبوا من ورائها أرباحاً فاحشة .

وكانت تلك المؤسسات ترمي إلى غرضين اثنين : أولهما : تشويه الإسلام وشخصياته في العالم العربي والغربي ، وتوعز إلى المستشرقين بالبحث عن شبه ومطاعن تروج لهم بضاعتهم(١) ، وثانيهما : الكسب غير المشروع الذي كانوا يلتهمونه عن طريق الاحتكارات والاستغلال .

(د) أسباب معاشية وشخصية :

وهو فرع من الأسباب السابقة ، « ويبدو أن فريقاً من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش المادية ، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصاً من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية ، أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم في الدين ، وتغطية لعجزهم الفكري ،

---

(١) انظر : شبهات التغريب : ٩١ وما بعده .

وأخيراً بحثاً عن لقمة العيش إذ أن التنافس في هذا المجال أقل منه في غيره من أبواب الرزق » . (١)

وبهذه الروح نشأ كثير من الشبهات وظهر العديد من المطاعن في شخصية الرسول خاصة وفي الإسلام عامة ، وقد رصدت بعض المؤلفات الإسلامية هذه الأسباب الخاصة ، وكشفوا عنها مثل كتاب المستشرقون ، وكتاب المستشرقون والدراسات الإسلامية والتبشير والاستعمار ، ودفاع عن الإسلام ، وكانت هذه المؤلفات وغيرها رداً على كتب مشبوهة حملت كثيراً من آراء المستشرقين من أمثال وجهة الإسلام : تأليف هاملتون جب مع جماعة من المستشرقين ، وكتاب : الغارة على العالم الإسلامي : وترجمه في جريدة المؤيد : محب الدين الخطيب وقد سبق الكتاب الأول . . وكان اسمه الحقيقي « فتح العالم الإسلامي » الذي يظهر مخططات الاستعمار والتبشير في تكوين مؤسساتهما المتعددة . أما (بروتوكولات صهيون) السرية التي افتضح أمرها في آخر القرن الماضي ، وطبعها سرجيوس بيلوس عا م١٨٠٥م ، ثم ترجمها محمد خليفة التونسي فقد أبانت عن مخططات التدمير الخلقي والفكري وانحلال العقائد السماوية ، وتفكك الإنسانية

---

(١) راجع الصفحات ١٩ وما بعدها ، و ص ٢٨ وما بعدها وص ٤٠ وما بعدها من كتاب : المستشرقون وراجع المجلدين ٣ـ٤ من مجلة المجمع العلمى العربى لعامى ٣٢ـ٩٣٤ ٠٠ نقله المبشرون والمستشرقون ص ١٢ ٠

ونشوء الكراهية والحقد ، وسيطرة الصهيونية على العالم . . ودور المستشرقين اليهود كان أخطر في طرح شبهات ومطاعن ترتبط بشعور الحقد باستعلاء التلمود على الوحي الإلهي ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد أخذ تعاليمه من التوراة ، وطعون يهودية استشراقية أخرى تحاول أن تنال من القرآن والسنة والعقيدة والشريعة ، وعلى رأس هؤلاء المستشرقين اليهود برنارد لويس ، ورونسون ، وجاك بيرك ، م. بيرجر ، وفنسنك ، وجولد تسهير ، ونولدكه .

(ه) أسباب علمية وثقافية :

ويبدو أن بعض الأسباب الشخصية المزاجية قد كان لها أثرها فقد « تهيأ – عند بعض الناس – الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر ، أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم »(١) .

ولكن من الثابت أن فريقاً من المستشرقين المعتدلين قاموا على تحقيق المصادر الأولى للسيرة النبوية كسيرة ابن هشام ، والمغازي للواقدي ، والكامل لابن الأثير ، وتاريخ الطبري . . وقد أغنوا هذه المصادر بالتعليقات والحواشي والفهارس المتعددة ، وترجموا كثيرا منها إلى لغاتهم الوطنية ليستعين الباحثون بها ويرجعوا إليها .

---

(١) الرسالة السابقة ص ١٢ .

وقد بلغت اهتمامات هؤلاء المستشرقين بنشر التراث التاريخي وبخاصة السيرة النبوية شأواً بعيداً وأنفقت جهود وأموال طائلة ، واشترك عدد منهم في مؤلف واحد ذي مجلدات متعددة . مما حمل كثيراً من العلماء المسلمين المحققين إلى الثناء على جهودهم وإنتاجهم ، كما فعل الدكتور النجار في مقدمة كتاب : مذاهب التفسير الإسلامي ، وكما فعل الشيخ أحمد شاكر في مقدمة كتاب : مفتاح كنوز السنة ، وكما تحدث طويلا : محمد كرد على عن ثمرات جهودهم كتابة ومحاضرة . .

وحين اكتملت المصادر الأولى للسيرة النبوية ، ووضعت نسخها المحققة بين أيدي المستشرقين الآخرين ظهرت دراسات خصبة مفيدة عن السيرة النبوية وقد سبق الحديث عن بعضها ، بدافع البحث والدراسة والوصول إلى الحقيقة التاريخية حيناً والتطرف والتعصب أحياناً أخرى . ومهما يكن من أمر فقد تكشفت الأسباب المرضية لظهور مطاعن استشراقية في شخصية الرسول وغيرها فتطبع تلك المطاعن بطابعها الخاص ، وتنحو بها في اتجاه مشبوه يبرأ العلم النزيه من التلوث به ، والفكر الحر أن يلتزم به .

وهكذا يصح القول : أن مطاعن المستشرقين عامة ومطاعنهم في شخصية الرسول خاصة نشأت من تعاون وثيق بين الاستعمار والتبشير والاستشراق ، وتلاحم عناصر الغزو الفكري المتعددة لتغريب

الثقافة العربية الإسلامية وبخاصة التاريخ الإسلامي . وفي طليعته سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) طبيعة المطاعن والشبهات :

وطبيعة المطاعن والشبهات تستوعب نوعية معينة منها وتتلاحم في نواح متعددة : فهي فكرية ، ودينية ، وتاريخية ، وحياتية .

فهي أولا فكرية :

(أ) لأنها من عمل الفكر الإنساني ونتاجه ، بل لأنه أُريد لها أن تكون عملا فكرياً واصطنعت لها وسائل ذهنية تقوم عليها .

(ب) وتناقش الذهن الإنساني في أخص خصائصه ، وأدق أبعاده حيث تطرح مشكلاتها ، وتتلمس لها الأسباب والدوافع .

(ج) وتحرص على زلزلة الفكر الإسلامي ، وربما بلبلة الشخصية النبوية في القيادة والنبوة باعتبارها المثل الأعلى .

(د) وتدفع جل الأفكار العربية وغير العربية حول الرسول إلي التردد والتشكيك ، وأحياناً تدفع بها إلى الرفض والإعراض .

(هـ) وتوهن من ابتكار أفكار مؤيدة وداعمة للحق ، تقوى أبعاد الشبهات بأفكار مغرضة متجنية ثانوية .

(و) وأعظم من ذلك كله هو أن الإسلام الذي يقوم على الفكر قبل كل شيء ، ومفاهيمه الذهنية قد حملتها شخصية الرسول إلى الناس دعوة وجهاداً ، فأية شبهة في شخصية الرسول

هي شبهة في الإسلام ، وأي مطعن في سنته وسيرته طعن في جانب من الفكر الإسلامي وذهنيته .

وهي ثانياً : دينيـــة :

(أ) لأنها ترتبط بالحديث النبوي قولاً وفعلاً وإقراراً وصفة ، وهو المصدر الثاني من مصادر الإسلام .

(ب) وتوهم أن شيئاً من أفكارها وأعمالها إنما هي اقتباسات من كتب سماوية أو تعلُّم من مصادر بشرية .

(ج) وتحاول أن تفسر حياة الرسول تفسيرات مادية خاطئة فتنسب إليه البطولة والعبقرية والحرية دون غيرها .

(د) وتفرق بين الإسلام كمثل وبين الإسلام كتطبيق فتوهن في النفس الإيمان بالنبوة حيث تتمثل مثل الإسلام حية في شخصية الرسول عليه السلام .

(هـ) ولأن ظاهرة الوحي والنبوة التي يطعن فيها المستشرقون إنما هي أخص مزايا الرسول عليه السلام ، فإذا تخللها شك فلا تغني أية صفة أو ظاهرة أُخرى عنها .

(و) وهي تمس ركناً هاماً من الدين سواء كان ذلك في عقيدته عليه السلام ، أو فكره أو سلوكه ، أو جهاده ، فلا يسلم المسلم إذا داخلته شبهة بها .

وهي ثالثاً : تاريخيـــة :

(أ) لأنها منطلق الشبهات التي تتصل أحداثها التاريخية بحياته سواء كان ذلك قبل الإسلام وبعده ، بل ومنطلق الشبهات الأخرى في بداية التاريخ ونهايته .

(ب) وتبعد التاريخ عن منهجه الموضوعي السليم من حيث أنها تظهر دراسات كيفية وذاتية لا دراسات تاريخية علمية منهجية ، مصدرية .

(ج) الشبهات والمطاعن تدور حول افتراضات وترددات تاريخية ، مع أن شخصية الرسول واضحة المعالم التاريخية من ولادته حتى وفاته .

(د) والحقيقة التاريخية تتحول إلى افتراء وضلال ، فتنعدم المفاصلة المحدودة بين الحقيقة والشبهة ، وبين التحليل والمطعن ، وبين التاريخ والخرافة .

(هـ) وإذا كان التاريخ طريق الإنسانية إلى الله كما يقول (أرنولد توينبي) في كتابه المعروف (دراسة التاريخ) ، والبالغ سبعة آلاف صفحة ، فأي فجوة تحدث لو طعن في تاريخ الرسول ؟

(و) وإذا كان التاريخ « تتبع الحضارات الإنسانية وتكاملها وسقوطها » ، كما يرى (ول ديورنت) في كتابه (قصـــة الحضارة) ، فأي تحقير للحضارات إذا دس على حضارة الإسلام دسائس ؟

وهي أخيراً : حياتيـــة :

(أ) لأنها تساهم في تقويض حياة المسلمين المعاصرة في العقيدة والفكر والأخلاق ، وتحبب إليهم حياة أبطال وقادة آخرين لا يمتون إلى مقوماتهم بصلة .

(ب) وتقطع الصلة التاريخية والشعورية والفكرية بين حاضر العالم الإسلامي وماضيه ، وربما دفعته إلى تحقير الماضي بشكل أو بآخر ، علماً بأن الفكر الإسلامي الحديث هو ثمرة الفكر الإسلامي الذي بناه القرآن ونمته تعاليم الرسول .

(ج) وإلى جانب أنها تهدم الجانب الروحي من حياة الإنسان التي يتمثل فيها حياة قائده ونبيه فهي تجمد المثل الأعلى في إطار تاريخي محنط .

(د) وتضعف آمال العرب والمسلمين بتجديد الحياة الفكرية والعملية وتقدمهم وتوجد مشكلات وشبهات متلاحقة تتصل بالحكم والجهاد .

(هـ) وتدع مجالا لظهور قادة لا يقبسون صفاتهم القيادية من الرسول ، ولكنهم ينصرفون إلى قادة غرباء عنهم في الفكر والعقيدة والبيئة .

(و) وننوه أنور الجندي بطبيعة الشبهات المتعددة الأبعاد ، الخطرة الآثار فيقول : ولعل أخطر محاولات التغريب إنما ركزت على تفريغ العقل والقلب الإسلاميين من القيم الأساسية المستمدة

من التوحيد والأخلاق والإيمان بالله، ودفع هذه القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق التعليم والصحافة والكتاب والمسرحية الفيلم والأزياء والملابس . . ثم يقول : ومن ثم خرّجت هذه المؤسسات جميعاً ذلك الجيل الذي حمل دعوة الهدم ، وسار بها تحت اسم التقدم والحضارة ، وعمد إلى متابعة المستشرقين والمبشرين في تحريف التاريخ الإسلامي وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته . وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ العالم ، مع خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين (١) .

٣ ــ أغراض المطاعن والشبهات :

وإذا صرح التبشير والاستعمار بأغراضهما النفوذي والاستعلائي والفكري في المسلمين وأسسوا لهما النوادي الاجتماعية والأدبية والصحية فإن الاستشراق يغلف أغراضه بلباس العلم والمعرفة ، ويضم جميع قضايا الإسلام ، وشخصياته ، وفي طليعتهم محمد عليه الصلاة والسلام ضمن أغراض واحدة ، تنكشف بعض أبعادها في قضية وتختفي في قضية أُخرى وهكذا ، ومن هذه الأغراض :

أولا : الحيلولة بين الشعوب النصرانية وبين الإسلام :

فقد عمل المستشرقون على تشويه الإسلام وحجب محاسنه

(١) كتاب : شبهات التغريب ص ١٧

لإقناع قومهم بعدم صلاحيته لهم نظام حياة ، ولعل هذا هو أخطر الجوانب التي قام لأجلها الاستشراق والتبشير وذلك في أعقاب الحروب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوربا ، يحملون صورة مشرقة لمعاملات المسلمين لهم وسماحة الإسلام وقد عمد رجال الكنيسة إلى إخراس الألسنة المنصفة ، وحاولوا ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه وانتقاصها . وقد استغل الاستشراق كراهية الأوربيين للإسلام بعد التوسع العثماني في أوربا وما صحبه من تعصب وحروب استمرت عدة قرون ، فعمد المستشرقون إلى تعميق الكراهية والأحقاد في نفوس الأوربيين وتغذيتها بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الإسلام عن أوربا والحيلولة دون نفاذه إليها .

ثانياً : تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين :

والعمل لتحطيم المقاومة الإسلامية ، بتأويل الجهاد وصرف أنظار المسلمين إلى الدعة والقعود عن الجهاد في سبيل الله ومدافعة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر . . وتحطيم وحدة المسلمين وتمزيق الدول الإسلامية وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في المجتمع الإسلامي وإحلال الأنظمة القانونية والسياسية والتربوية لتحل محل الإسلام بالقوة .

ثالثاً : فصل المسلمين من جذورهم الثابتة الأصيلة :

بتشويه تلك الأصول ، وعزلها عن مصادرها ، وهدم

المقومات الأساسية للكيان الفردي والاجتماعي والنفسي والعقلي للمسلمين ، ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار وثقافته وفكره ، والتأثير في نفوس المسلمين وزخرفة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحي طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة وأتباع (١) .

وإذا كان محمد رسول الله والموحى إليه بالإسلام والقرآن ، وصاحب الحكم والسلطان في دولته فإن أغراض المستشرقين طرح مطاعنهم وافتراءاتهم يمكن أن تشمل العقيدة ، والإسلام ، والقرآن ، والتاريخ والجهاد والحكم والتشريع وغيرها ، وإنما تم طعونهم بها عن طريق طعونهم بشخصية الرسول أو بسمة من سماته العظيمة .

رابعاً : تكريس التخلف العربي الإسلامي :

والإبقاء على ضعف البلاد العربية والإسلامية وتأخرها ثم إيهام المسلمين أن التخلف والضعف نتيجة من نتائج اتباعهم الإسلام واقتدائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلقوا لذلك شبهات لا حصر لها تشمل التصور الإسلامي ، وعباداته ، ونظمه ، وتشريعه ، ومقوماته وتاريخه .

ولا ريب أن من نتائج هذا ذوبان الشخصية الإسلامية واحتواء الذات العربية حين تمكنهم قواهم من القضاء على مقومات كيان

---

(١) الاسلام فى وجه التغريب ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ ونقله كتاب أساليب الغزو الفكرى ص ٢١ ـ ٢٢ .

العرب والمسلمين ، وإشاعة أخلاق الضعف والانحلال والإباحة ، والأفكار الوافدة المغربة حتى لا تقوى على مواجهة التحديات (١) .

وقد عمل الاستعمار جاهداً على ترديد هذه الدعوى ــ تأخر العرب والمسلمين بسبب الإسلام ــ « ولكنها حين تعرض على منهاج العلم والتاريخ يبدو زيفها واضحاً وضوحاً لا لبس فيه ، ومن الحق أن يقال · أن تأخر العرب والمسلمين إنما يرجع أساساً إلى الإنحراف عن مفهوم الإسلام ، فلو أن العالم الإسلامي ظل مرتبطاً بمقومات الإسلام وقيمه الأساسية لم ينحرف عنها لما وقع في هذه الأزمة » (٢) .

هذه ناحية ، وناحية أخرى · أن أكثر ما يخافه الغرب هو نهضة المسلمين واستعادة قواهم الفكرية والمادية خشية أن يجتاح الإسلام بمبادئه وشخصياته العالم الغربي ،وتمتد فتوحاته إلى مناطق شاسعة من الأرض المعمورة .

يقول لورنس براون · إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي (٣) .

ويضع أنور الجندي يده على صميم المشكلة فيقول · ومن الحق أن نقول : إننا لو كنا مستمسكين بقيمنا وذاتيتنا ومناهجنا

---

(١) انظر تفصيلا لهذه الفكرة فى شبهات التغريب ص ٦٣ومابعده·
(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ ·
(٣) المصدر السابق ص ٣٠

وأصالتنا لما هزمنا أحد ، إن وجودنا خلال فترة الاستعمار ، وما بعدها كان في إطار من الأصالة إسماً ، ولكنه لم يكن تطبيقاً ولا نظاماً (١) .

خامساً : مرحلة السنة النبوية وتعطيلها :

فأعمال الرسول وتوجيهاته وقيادته كانت بنظرهم صالحة لفترة الجاهلية ، ولإصلاح مفاسدها وإبطال جهالتها ، وتلك المرحلة انتهى دورها وأتمت غرضها . . وليس من الإصلاح الخلقي والاجتماعي والعقائدي أن تنسحب توجيهات الرسول إلي العصر الحاضر ، فشتان بين العصرين ، وبخاصة إذ استطاعوا أن يقنعوا العربي المسلم ببعض الافتراءات عن السنة النبوية ، فقد كتب (جويتبل) يطعن في الحديث النبوي وتناقضه : ومع الزمن ازداد ما روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل شيئاً فشيئاً في عدده وفي غزارته . . وعملت كل فرقة على تأييد رأيها . . ومن استطاع أن يرد رأيه إلى أثر من آثار النبي فهو على الحق من غير شك ، ولهذا كثرت الأحاديث الموضوعة المتناقضة أشد التناقض في سنة محمد (صلى الله عليه وسلم (٢) .

ويرد المرحوم أحمد شاكر الافتراء السابق بتعليق مطول . ومنه : أما أنه وجد بعض الكذابين الوضاعين الذين افتروا

(١) المصدر السابق .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية من ص ٣٣٠ ـ ٣٤٦ فى مادة(حديث)

أحاديث النبي عليه السلام - . وإما أنه وقعت أغلاط من بعض الرواة الصادقين في بعض الروايات ، أما هذا كله فلا شك في وقوعه ، وهو الذي قام علماء الحديث بهذا المجهود الهائل في سبيل بنائه . . إلى أن يقول : وأما الصورة التي تبدو في مقال كاتب المادة : أن كل تفصيل في الأحاديث (من حلال وحرام وطهارة) هو من الموضوعات فإنما هي نفي للسنة جميعها وإبطال لها ، معناها : أن رسول الله لم يفعل شيئاً ولم يقل شيئاً(١) .

ومن افتراءاتهم على السنة النبوية إدعاؤهم أن بعض أحاديث الرسول أخذ من تعاليم الإنجيل ، وإقامة عادات جديدة بدلا من عادات الآباء ، والتشكيك في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإبراز الأقوال المتعارضة ظاهراً بمظهر التناقض والطعن .

ولكن علماءنا المحققين ردوا الافتراءات واحدة بعد الأخرى بالأدلة الواضحة في منهج علمي سليم (٢) .

٤ ـ محاور المطاعن والشبهات ومرتكزاتها :

وتدور مطاعن المستشرقين وشبهاتهم حول محورين :

أحدهما : **محمد إنسان وليس برسول ولا نبي .**

ثانيهما · **الإسلام نتاج إنسان وليس بوحي .**

---

(١) التعليق على المادة نفسها فى المصدر السابق ·

(٢) اعتمد جوينيل فى مقاله السابق على أكثر من عشرة مصادر أجنبية وعربية مترجمة ، أنظر المقال والردود عليه فى دائرة المعارف المصدر السابق ، وكتاب السنة ومكانها : الدكتور مصطفى السباعى ·

* فأما المحور الأول · فسيان أولئك المستشرقون الذين قالوا · إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) مصلح اجتماعي ، وعبقري فذ ، وبطل من أبطال التاريخ ، وقائد من قادة الإنسانية أم وصفوه بأقذع الصفات ، وأعنف الملامح من خداع ، ونهم ، وجبن ، وقسوة وسفك للدماء ، واتباع لتعاليم الكتب السماوية السابقة وغيرها .

أقول : سيان من نظروا إلى شخصية الرسول نظرة إيجابية ومن نظروا إليها نظرة سلبية ، ومن وزنوها بميزان الاعتدال والنصفة ، ومن وزنوها بميزان التشويه والأغراض ، فهم متفقون جميعاً على أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رجل الجزيرة الأول ليس غير ، والفكر الإسلامي وإن كان لا يتوقع من الفئة الأولى أن يؤمنوا بمحمد رسول الله كما يؤمن به المسلمون نبياً ورسولا . فإن الفكر الإسلامي أيضاً لا يتوقع من أعداء الإسلام ونبيه إلا ما طرحته الفئة الثانية من مطاعن وشبهات وإقذاع .

ولكن من الحق أن يقال : إن فئة ثالثة من المستشرقين وهم الذين حملهم قول الحق والصراحة بالحقيقة والإنصاف في حمل الأمانة الفكرية على الدخول في الإسلام والالتزام به قولاً وفعلاً ، حتى أصبح الكثير منهم دعاة إلى الإيمان بالإسلام ونبيه في المجالات الفكرية جميعها . وما دام الحديث محدوداً بمطاعن المستشرقين وشبهاتهم فإن أية شبهة لهم بدءاً من الدوافع للنبوة

إلى اسم الرسول ، ثم إلى حياته قبل البعثة وبعدها تتمركز حول المحور الأول الذي ينبيء أن المستشرقين مستعدون أن يقروا بكل شيء ويبحثوا أي جانب من جوانب شخصيته ويستنتجوا منها صفات عديدة ، ومزايا متنوعة ، إلا أنهم لا يمكن أن تحملهم حماستهم الفكرية ولا دراساتهم التاريخية ، ولا استنتاجاتهم الموضوعيةعلي الإقرار · بأن محمداً رسول الله أوحي إليه بالدين، كسائر إخوانه الأنبياء الذين يقرون بنبوتهم ويعتقدون باتصالهم بالله مثل : إبراهيم وإسحاق وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام ، إن هذا هو التحيز في البحث ، والتعصب في العقيدة ، والتطرف في الإيمان .

* وأما المحور الثاني فهو — وإن كان الحديث عنه له مناسبة أخرى . فإنه بنظرهم نتاج إنسان مصلح أو عبقري .

فأعلام المستشرقين المتخصصين بالقانون من أمثال : شاخت ، يقر أن الإسلام من الوجهة القانونية متفوق على القانون الروماني ، ومتقدم على كثير من الشرائع الحديثة .

وأولئك المتخصصون بالديانات يقول بعضهم : إن عقيدة التوحيد الإسلامية تمتاز بالبساطة والوضوح والواقعية والمنطق أكثر من أية عقيدة سماوية أو بشرية أخرى .

والعبادات — وإن كانت بنظر بعضهم قد أخذت بعض أعمالها من بقايا الجاهلية ، ورواسب ديانات شرقية قديمة — فهي

تهدف إلى الإصلاح الفردي والاجتماعي معاً .

والأخلاق والقيم التي عدها بعضهم أنها الإسلام كله من حيث أنه وصايا ومواعظ مجرداً من المناهج التربوية والنظم الحياتية بأن فيها قيماً كلية إنسانية : كالحرية وكرامة الإنسان ومسؤوليته ، والحفاظ على حياته . . مما انفرد به الإسلام عن غيره . والنظم : اقتصادية ، وقضائية ، وسياسية ، وأسرية واجتماعية ودولية ، جانب ألمعي في الإسلام الذي حكم الأرض بحضارته في الفترة السابقة . وفيه قدرات ذاتية حيوية متنامية أن تحكم الأرض من جديد .

أقول : هذا الإسلام ـ مهما كان عظيماً في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع ـ فإنه بنظرهم وفي مستوى دراستهم ، ومدى بحثهم ـ نتاج إنساني يمكن أن يصفوه بأي وصف إلا صفة النبوة والرسالة .

ومن هذين المحورين تنطلق مطاعنهم وتتداعى شبهاتهم في جوانب السيرة النبوية جميعها وسأذكر أمثلة محدودة من شبهاتهم ومطاعنهم تاركاً سائرها إلى مناسبة أخرى إن شاء الله .

ويستوي في ذلك من يذكر للإسلام محامده السابقة وغيرها ومن يتوخى مثالب موهومة له كالهمجية والطلاق ، وتكريس الرقيق ، وهضم المرأة حقوقها ، وفقدانه المعاني الروحية ، إلى غير ذلك من المطاعن التي لا تتفق مع مبادئه وتشريعاته .

٥ ــ أمثــلة منها :

١ ــ شبهات آدمية

(أ) شبهة النهم في الطعام :

يقول لامانس : أنه أكول ، قد كثف جسمه بالملذات . .

وهو بهذا يعاند المشهور والمعروف والثابت من آدابه عليه الصلاة والسلام في الطعام ، فقد خرج الرسول من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكثيراً ما كان قوته الخبز والماء اللذان كان يسميهما (بالأسودين) ، وينقل ابن القيم الجوزية : أنه كذلك كان هديه صلى الله عليه وسلم وسيرته في الطعام ، لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً . . ولم يرد طيباً ولا يتكلفه بل كان هديه أكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر ، حتى أنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع ، ويرى الهلال والهلال والهلال ولا يوقد في بيته نار (١) .

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وحسنوه ، وصححه الحاكم حديث المقدام بن معد يكرب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمي نفسه

---

(١) زاد المعاد ١ــ٣٧ طبعة البابى الحلبى .

فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس » (١) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية ، فدعوه ، فأبى أن يأكل ، وقال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير » (٢) وعنه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض (٣) .

ومن جهة ثانية ان لامانس « لا يذكر شيئاً عن صوم الرسول شهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم في غيره الاثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر . . « وكان يواصل الصوم في رمضان ، أي يصل الليل بالنهار في الصوم يومين أو أياماً ، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة ، وكان ينهى أصحابه عن الوصال ، فيقال له : انك تواصل ، فيقول : لست كهيئتكم اني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني (٤) والمراد من اطعام الله وسقيه ، ما يغذيه به من المعارف ، وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة (٥) .

---

(١) أورده ابن حجر فى الفتح ٩ـ٥٢٨ طباعة محب الدين الخطيب .

(٢) (٥٤١٥) باب : ما كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون ٩٠ـ٥٤٩

(٣) ـ (٥٤١٦) بنفس الباب .

(٤) انظر أحاديث الوصال فى صحيح البخارى (١٩٦٥) و (١٩٦٦) ٤ـ٢٠٥ـ٢٠٦

(٥) من رسالة عن سيدنا محمد للشيخ محمد الخضر حسين .

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه ، ويصوم منه حتى يظن أن لا يفطر منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته (١) وللبخاري أيضاً عن عائشة قالت : لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم يصوم شهراً أكثر من شعبان ، وكان يصوم شعبان كله ، وكان يقول خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا . . (٢) .

أفبعد هذا يمكن لدعي أن يفتري على الرسول بالنهمة ؟

(ب) شبهة الجبن والهلع في الغزوات :

وهي شبهة لم يعرف أحد من المؤرخين قديماً أو حديثاً أنه افتراها على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد شذ عن هذا الإجماع المستشرق القس (لامانس) فقد وصف الرسول بها وأراد أن يعمم الحكم على العرب قاطبة فقال : زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما امتاز به العربي من صفات ومزايا ، ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة . . ان شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام . . (٣) .

---

(١) ـ (١١٤١) ٣ـ٢٢ (٢) ـ (١٩٧٠) ٤ـ٢١٣

(٣) نقله كتاب اوربا ص ٩٧ ـ ٩٨

ويقدم الدكتور عبد الحليم الحديث عن شجاعة الرسول فيقول : لقد كان يقود الجيوش في الغزوات . . ولم تطر نفسه شعاعاً في أية واحدة منها ، ولا يوم أحد ، وقد ابتلي المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً ، ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . . ولم ترعه النبال كالمطر يوم حنين . . ومع ذلك فإن (لامانس) يصفه بعدم الشجاعة . .

وروى البخاري في صحيحه بمسنده عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أسبقهم على فرس ، وقال : وجدناه بحراً (١) .

وروى البخاري أيضاً عن جبير بن مطعم في مقفله صلى الله عليه وسلم من حنين قوله : ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوباً ولا جباناً (٢) .

وكان الرسول يتعوذ من الجبن ، فقد روى البخاري في صحيحه بمسنده عن عمرو بن ميمون الأزدي ، وعن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم . . (٣) .

---

(١) (٢٨٢٠) باب الشجاعة ٥ـ٣٥ ، وقوله بحرا : أى واسع الجرى .

(٢) (٢٨١٢) بنفس الباب .

(٣) (٢٨٢٢) و (٢٨٢٣) باب من يتعوذ من الجبن ٦/٣٥ـ٣٦ .

ويعلق الشيخ محمد الخضر حسين على هذا القول فيقول :

«كذلك الداعي إلى الحق ولا سيما المعهود إلينا بإبلاغه وتنفيذه ، لا بد من أن يكون شجاعاً ، رابط الجأش ، على قدر شدة المدعوين وصعوبة مراسهم ، وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمللهم، وعاداتهم وأهوائهم ، فإذا أودع الله تعالى قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، شجاعة وسكينة في مواضع الخطوب ، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب ، إذ لا أشد من مراسي الأمة التي ابتدأ بأقدارها وهي الأمة العربية ، وفي دعوة الإسلام على مللهم وذم لمعبوداتهم ، وإبطال كثير من عاداتهم ، وصرف لهم عن أهوائهم (١) .

ولهذا فكيف تثبت مثل هذه الشبهة وقد كان رسول الله بطل الأبطال ، وفي مقدمة الشجعان .

(ج) شبهة النَّومَة :

وهي الشبهة التي يخالف فيها صريح القرآن والسنة ، وحقائق التاريخ ، وصفات الرسول المشهورة . فإن لامانس يقول: كان محمد نؤوما . . وهو لا شك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول كان يقضي جزءاً كبيراً من الليل في العبادة

---

(١) من رسالة عن سيدنا محمد ، ونقله كتاب أوربا والاسلام ص٩٧

لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم (١) .
أما القرآن فيقول الله تعالى :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ » (٢) .

وأما الحديث ، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يقوم حتّى تفطّر قدماه (٣) .

وأخرج البخاري في صحيحه أيضاً ، عن المغيرة رضي الله عنه قال : ان كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم – أو ليصلي – حتّى تتورم قدماه – أو ساقاه فيقال له، فيقول : أفلا أكون عبداً شكورا . . (٤) .

ويقول ابن حجر ناقلا ومعلقاً على هذا الحديث قال القرطبي : ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب وطلباً للمغفرة والرحمة ، فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك ، فأفادهم أن هناك طريقاً للعبادة وهو الشكر على المغفرة ، وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئاً ، فيتعين كثرة الشكر على ذلك . . ثم يقول ابن حجر : وفيه ،

---

(١) ونقله : أوربا والاسلام ص ٩٩ (٢) المزمل : ٢٠
(٣) باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم الليل : ٣–١٤ ، ومعنى تفطر : أى تشقق ٠
(٤) (١١٣٠) بنفس الباب ، ومعنى : ترم : من الورم وهو الانتفاخ٠

ما كان النبي صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه . . (١) .

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء ، قلنا : وما هممت ؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

وروى مسلم من حديث حذيفة أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ البقرة وآل عمران والنساء في ركعة ، وكان إذا مر بآية فيها تسبيح ، سبح ، أو سؤال سأل ، أو تعوّذ ، تعوذ ، ثم ركع نحواً مما قام ، ثم قام نحواً مما ركع ، ثم سجد نحواً مما قام (٣) .

وذكر ابن القيم أنه كان ينام على الفراش تارة وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير ، تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود . . وكان فراشه أدماً حشوه ليف ، وكان له مسح ينام عليه يثني بثنيتين ، وثني له يوماً أربع ثنيات ، فنهاهم عن ذلك ، وقال ردوه إلى حاله الأول فإنه منعني صلاتي الليلة (٤) أقول : أين هذا السلوك النبوي من افتراءات المفترين من المستشرقين ؟ !

(١) انظر الفتح : ٣ـ١٥
(٢) (١١٣٥) باب طول القيام فى صلاة الليل ٣ـ١٩
(٣) ذكره الفتح : ٣ـ١٩ (٤) زاد المعاد ١ـ٣٩

٢ ـ شبهات نبوية

(أ) اسم الرسول :

يقول (درمنغم) (١) : وهنا نذكر أن الإسم الأصلي للنبي هو (قثم) فلم يلبث هذا الإسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته إلى (محمد) الذي هو لقب نبوي أكثر من أن يكون إسماً ، والنبي كان يكنى لزمن طويل بأبي القاسم على الخصوص . . حتى أن (لامانس وغيره) يعدان اسم الرسول لغزاً من الألغاز التي لم تحل . ويعلل (هوار) في كتابه : تاريخ العرب (٢) : أن كلمة (محمد) نعت ذو معنى خاص ، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس إلا . .

ويعلق مترجم كتاب (درمنغم) (٣) على هذه الفرية بقوله : هذا من أغرب ما انتهى إليه المستشرقون ، وأول من ذهب إلى ذلك (سبرنجر) مستنداً إلى ما جاء في باب « تسمية الرسول » من السيرة الحلبية نقلا عن (الامتاع) من « أنه لما مات (قثم) ابن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، وجد عليه أبوه وجداً شديداً ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه (قثم) حتى أخبرته أمه آمنة أنها أمرت في منامها أن تسميه محمداً فسماه محمداً

(١) فى كتابه : ص ١٢ (٢) ١ ـ ٩٠

(٣) نقله كتاب أوربا والاسلام ص ١٠٣ وبعض الردود الآتية دينية .

فمن هذه الرواية البادية الوضع والتي تدل أقل نظرة إليها - عند قبولها على علاتها - على أن عبد المطلب عدل عن اسم « قثم » إلى اسم « محمد » بعد ولادة الرسول بدقائق معدودات ، يرى أن اسم « محمد » أطلق على الرسول فور ولادته من قبل أمه آمنة ، ثم تابع (هرشفلد سبرنجر) على رأيه ذلك ، ولم يعتم كثيرون من المستشرقين أن وجدوا في هذا فتحاً جديداً فأغربوا في استنباط أبعد النتائج منه ، فغدوا يقولون أن الرسول انتحل اسم « محمد » بعد البعثة ، وبلغ بعضهم من التعسف والتجني ما صار يزعم به أن ما ورد في القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القاطعة القائلة : أن أمر الرسالة ما كان ،ليستقيم لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد ، وفي القرآن :

« وإذْ قالَ عِيسىٰ ابن مَرْيَمَ يَا بَني إِسْرَائيلَ إِنّي رسولُ اللهِ إليكمْ مصدقاً لما بينَ يديّ من التوراة ومُبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسْمُه أَحْمد ».

ونفسا على الإسلام بما كان من اشتمال كلمة « البارقليط » اليونانية التي وردت في « الإصحاح الرابع عشر » من إنجيل « يوحنا » على معنى كلمة « محمد » وقد غفل هؤلاء المستشرقون عما جاء في « السيرة الحلبية » التي يستندون إليها ، من أن بعضهم عد ستة عشر ممن سموا بمحمد قبل ظهور السيد الرسول ، وجاء

(١) عادل زعيتر ص ١٣

في اللسان « مع ذلك : القثم : المجتمع الخلق ، وقيل الجامع الكامل ، وفي الحديث : أتاني ملك فقال : أنت قثم وخلقك قيم » فلا أدري ماذا يقول المستشرقون عن هذا الحديث الذي يدل على أن كلمة « قثم » جاءت في معرض خطاب الملك للرسول بعد البعثة » .

ومع تقديرنا لرد هذه الشبهة فإن الحديث الذي أورده لم تذكره صحاح المصنفات في الحديث الثمانية أو التسعة ولكن الذي جاء في (ابن ماجة) بسنده قال : قالت أم الفضل : يارسول الله : رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضائك قال : خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً فترضعيه ، فولدت حُسيناً أو حسناً ، فأرضعته بلبن قثم . قالت : فجئت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره فبال ، فضربت كتفه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أوجعت ابني رحمك الله (١) .

(ب) أمِّية الرسول :

يقول باريه (٢) :

. . . والآية الأخيرة :

« ومِنْ أهْلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاَّ

---

(١) كتاب تعبير الرؤيا (٣٩٢٣) واسناده ثقات الا انه منقطع
(٢) مادة : أمى ، دائرة المعارف ٢ـ٦٤٥ وما بعده

مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١) .

تجعل من المحتمل أن كلمة أمي أو أميين وضعها أهل الكتاب (وربما كان واضعوها هم اليهود) للدلالة على الوثنيين ، ويزيد في تأييد هذا الرأي أن (هورفتز) بين أن لها مقابلا في العبرية هو (اموت هاعولام) . . ثم يقول : ويصعب الجزم بالمعاني التي كان يقصدها محمد من كلمة أمي . . ثم يذكر أقوالا لبعض المستشرقين فيقول : وذهب بول . أخيراً إلى أن كلمة أمي معناها « الذي لا يكتب ولا يقرأ » وليس معناها « الوثني » . . ولكنه يعقب على هذا الرأي فيقول : وهناك عوامل لغوية تجعل من الصعب أن نقول أن كلمة أمي معناها « الذي لا يكتب ولا يقرأ » فلا الكلمة العربية « امة » ولا العبرية « اما » ولا الآرامية « اميتا » تدل على الأمة في حالة الجهالة . . وقد استدل قوم بإطلاق لفظ الأمي على محمد بأنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ، والحقيقة أن كلمة « الأمي » لا علاقة لها بهذه المسألة لأن الآية :

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ » (٢) .

التي تدعو إلى هذا الافتراض لا ترمي الأميين بالجهل بالقراءة

---

(١) ال عمران : ٧٥ (٢) البقرة : ٧٨

والكتابة بل ترميهم بعدم معرفتهم بالكتب المنزلة .

وعلى ما في أقوال المستشرقين من تعارض وتناقض حول هذه القضية فإن هذه الشبهة يمكن ردها بما يلي :

١ — ان كلمة « الأمي » وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم في آيتين في سورة الأعراف ، وهي مكية ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم صلة باليهود حتى يمكن الكاتب أن يزعم أن الكلمة أطلقها اليهود في ذلك الوقت على الوثنيين ، ومقابلتها بالعبرية والآرامية لا يعني أبداً أنها من وضع اليهود لا أصلا ولا اشتقاقاً ولم تكن دخيلة عليها .

٢ — ان كلمة « الأمي » جاءت في ست آيات من القرآن : الأعراف : ١٥٧ و ١٥٨ ، وآل عمران : ٢٠ و ٧٥ ، والجمعة : ٢ ، والبقرة : ٧٨ ، وسياقها كلها يدل على أن المراد بها هو من لا يعرف القراءة والكتابة كما هو المعنى المعروف في لغة العرب ، وبذلك فسرها أئمة اللغة العارفون بها ، فمن ذلك قول الطبري في تفسيره (١) : أن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب . . وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (٢) « الأمي » الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب ، نسب إلى الأم ، لأنه ليس من شغل النساء.. أما القرآن فقد صرح بأميته في قوله :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » (٣) .

---

(١) ١ــ٢٩٦ (٢) المحيط : ١ــ٢٦٩ . (٣) العنكبوت : (٤٨)

وقد ثبت بالتواتر أمية الرسول وأنها من آيات نبوته التي يحاول المستشرقون نزعها منه .

٣ ـ وأما آية (ومنهم أميون . .) السابقة ، التي ادعى الكاتب أن المراد منها : عدم معرفة العرب بالكتب المنزلة . . فإن هذا الرأي قد سبقه إلى نحوه بعض المفسرين ، ونقل الطبري (١) أثراً عن ابن عباس بتأويل الآية على معنى أنهم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله الله ، وأنه سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ، ولكن هذا الأثر ضعيف الإسناد ، غير ثابت النقل لأنه من رواية الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس ، ولكن الضحاك وإن كان ثقة فلم يلق ابن عباس ولا غيره من الصحابة ، ثم لو صح هذا لكان له وجه على سبيل المجاز ، ومع ذلك فقد رده الطبري فقال : وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم . . (٢) .

(ج) القرآن ليس وحياً :

ان الشبهة السابقة تقوم عليها شبهة أخطر منها وهي نسبة القرآن إلى الرسول على أنه من صنعه ومن كلامه ، وهي القضية التي تتوقف عليها نبوة الرسول ووحي الله إليه بالقرآن ، ومن العجيب أن المستشرقين المغرضين لا يرون فرقاً في الأسلوب

---

(١) ١ـ٢٩٦ (٢) انظر تعليقا مستفيضا للمحقق احمد محمد شاكر فى المادة نفسها ، وقد اقتبسنا بعضه .

والانبهار والإعجاز بين كلام الله وبين ذروة البلاغة الإنسانية في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحين تحدى القرآن البشر عامة والعرب خاصة أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة من سوره ، كان محمد صلى الله عليه وسلم أول البشر والعرب الذين وقع عليهم التحدي القرآني . حتى أن الرسول نفسه كان ينهى عن كتابة حديثه في حياته لمن يخشى عليهم اختلاط القرآن بالحديث . ثم هل يصح لمؤلف أن يعاتب نفسه أشد العتاب بفعل ما هو أولى ويعلن ذلك للناس ؟ وهل عجز العرب – وهم أهل البيان – أن يفرقوا بين حديث الرسول وكلام الله ؟

وكيف يتأتي لمفكر ذواقة بالبيان مدرك لأسرار العربية أن يجحد وحي الله وقد شهد بنبوته العالم قديمه وحديثه ؟

يقول أنور الجندي ناقلا (١) وأخطر ما يقول هؤلاء أن القرآن انطباع في نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التي عاش فيها أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحياً إلهياً اعتماداً على القول بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه .

ولا ريب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن « فإنه إن كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الأسمى ، وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه » .

---

(١) فى كتابه : شبهات التغريب ص ٣٨٤ وأماكن أخرى

ويختم كلامه في هذه الشبهة فيقول : ونحن نعرف أن هناك فرقاً واضحاً بين كلام محمد وكلام القرآن في النسق والنظم ، ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف ما في الكتب السابقة ، لقد كان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيره ، فمن الذي أطلعه على قصص الأولين ؟

(د) الحالات العصبية للرسول :

. . . ويقول شبرنجر (١) : ان الحالات العصبية التي كانت تنتاب النبي قد ورثها عن أمه (بسبب الرؤى التي كانت تراها آمنة أثناء حملها . . وما هي إلا من قبيل الخرافات) ولكن (بول) (٢) يرد هذا الزعم ويقول : . . . ويجب ألا نستخدمها (الرؤى) كما فعل شبرنجر ويعلق الشيخ محمد عرفه على ذلك بقوله (٣) : ويسرنا هنا أنهم ردوا على شبرنجر في زعمه أن رسول الله كانت له حالات عصبية تنتابه وأنه ورثها عن أمه ، ولكننا لا نوافقهم على زعم أن الرؤى التي كانت آمنة من قبيل الخرافات فليس من المستحيل رؤيا آمنة ، والرؤيا لا تدل على أن صاحبها ذو حالات عصبية تنتابه . .

---

(١) دائرة المعارف : ٢-٦٣٠ مادة آمنة
(٢) المصدر السابق ٠
(٣) المصدر السابق

وقد تناول هذه الشبهة بالتفنيد العديد من الباحثين المسلمين والمستشرقين ، وردوها من وجهيّ علم النفس وعلم التاريخ ، وبينوا بطلانها من دراسة الظواهر النفسية والتحليلات الصحية والمرضية للشخصية الإنسانية ، وأن نبوغ الإنسان وتفوقه وآثاره الفكرية ونتاجه الذهني المتساميين لا يمكن أن يتدفقا من نفسية مريضة بالصرع أو الغشيان ، كما لا يمكن أن تتشابه حالات الوحي وصفاته مع الحالات العصبية المرضية ، وقد فصّل الدكتور هيكل الحديث (١) عن هذه النقطة بقوله : ان مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن أعراضه كانت تبدو عليه ، إذ كان يغيب عن صوابه ويسيل منه العرق وتعتّريه التشنجات وتخرج من فمه الرغوة حتّى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول : انه وحي الله إليه ، في حين أنه لم يكن هذا الوحي إلا أثراً من نوبات الصرع : ويرد « هيكل » ذلك بقوله : وتصور ما كان يبدو على محمد « صلى الله عليه وسلم » في ساعات الوحي على هذا النحو خاطيء من الناحية العلمية أفحش الخطأ ، فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها بل هو ينسى هذه الفتّرة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطيل ، هذه أعراض الصرع

---

(١) كتابه حياة محمد ـ ٤٠ وهناك مآخذ على هذا الكتاب لا مجال لايرادها الآن .

كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه .

هذا ثم ان نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية ، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنا في هذا الكتاب من نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية . . ثم ينهي كلامه مؤكداً المعنى السابق : فالصرع يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس ، أما الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الشبهة قد ردها – قبل الدكتور هيكل – مستشرقون معتدلون في بحوثهم ومؤلفاتهم مثل : آتين دينه في كتابه : الرسول محمد ، ودرمنغم في كتابه : حياة محمد ، وآرفنج في كتابه : حياة محمد ، وول ديورنت في كتابه : قصة الحضارة ، ودوغويه في : مباحث شرقية ، وسنوك هرغرنجه الذي يقول : يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هي ما يميزه عن سائر الهستريين (١) ، وغيرهم كثير قد عقدوا فصولاً مسهبة أحياناً

---

(١) وانظر كتاب أوربا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمـــود ص ٨٩–٩١ مع احتفاظنا بحق رد الاباطيل التى تثيرها أفكارهم .

في كيفية الوحي التي اعتمد بعضهم فيها على الأحاديث الصحيحة والسيرة النبوية الموثوقة .

(هـ) جحود المعجزات النبوية الأخرى :

وإذا كانت ظاهرة الوحي خارقة من خوارق العادات والنواميس الكونية ، وقد ثبتت صورها بالسنة النبوية الصحيحة ، فلماذا لا تثبت صحة الخوارق والمعجزات الباقية حين تتحقق روايتها وتصح أحاديثها ؟

« كما أن المسلم لا يصح له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة في حياته صلى الله عليه و سلم ، إنما هي القرآن ، ما دام أنه لا ينكر أن له عليه الصلاة و السلام سيرة يحاول أن يفهم من خلالها ، أما ان كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضاً ، إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن ، والإقدام على تأويل هذا وتسليم ذلك طبق ما يستهوي ، ويتفق مع العرض ، اسفاف غريب في تصنع البحث والفهم ، لا يقدم عليه من كان كريماً على نفسه معتزاً بعقله (١) .

« ذلك لأن هذه الخوارق سميت كذلك لخرقها لما هو مألوف أمام الناس ، و ما كان للألف أو العادة أن يكون مقياساً علمياً لما هو ممكن وغير ممكن ، وهيهات أن يقضي العلم يوماً ما بأن

---

(١) فقه السيرة : الدكتور سـعيدرمضان البوطى ص ١٠

كل ما استأنست إليه عين الإنسان مما هو مألوف هو وحده ممكن الوقوع ، وأن كل ما استوحشت منه عين الإنسان مما هو غير مألوف له غير ممكن الوقوع . .

فإن رحت تسأل القانون العلمي عن رأيه في خارقة أو معجزة إلهية ، قال لك بلسان الحال الذي يفهمه كل عالم ، بل كل متبصر بثقافة العصر ، ليست الخوارق والمعجزات من موضوعات عملي واختصاصي ، فلا حكم لي عليها بشيء ، ولكن إذا وقعت خارقة من ذلك أمامي فإنها تصبح في تلك الحال موضوعاً جاهزاً للنظر والتحليل ، ثم تغطي تلك الخارقة بقانونها التابع لها (١) .

* البراق والإسراء والمعراج :

يقول : كارادافو B. Carra de vaux (براق)(٢) أطلق هذا الإسم الذي يتصل باسم البرق في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي امتطاه النبي ليلة المعراج — وقد أشير في القرآن (سورة الإسراء الآيتين : ٥١ و ٥٩ ، وسورة النجم ١ — ٨ إلى رؤيا للنبي رأى فيها أنه حمل من مكة إلى بيت المقدس وصعد من هناك إلى السماء . . وقد وشيت هذه الأسطورة كثيراً وأصبحت باعثاً

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠ منقولا عن كتابه : كبرى اليقينات الكونيــة ص ٣٢٩

(٢) دائرة المعارف : (٣/٤٨٥ مادة براق .

من البواعث المحبوبة التي توحي إلى الشعراء وأهل الفن . . ثم يذكر صوراً فارسية عجيبة الشكل . .

ويعلق المحقق أحمد محمود شاكر على هذه الشبهة فيقول (١) في حديث الإسراء والمعراج أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به أتي بدابة (دون البغل وفوق الحمار أبيض ، يضع خطوه عند أقصى طرفه) و هي أحاديث لا شك في صحتها عند أهل العلم بالحديث ، بل هي في جملتها متواترة قطعية الثبوت ، وهذا الوصف ليس من أقوال المفسرين كما يزعم الكاتب . .

ثم يقول : وقد كان لكاتب المقال مندوحة أن يتحاشى الألفاظ الجافة في تعبيره إذ يزعم أنه (في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي) وليس من الأساطير ما ثبت عند علماء المسلمين بالتواتر الذي لا شك عند المسلمين في صحته واليقين به ، وهذا البراق . . من أمور الغيب التي أخبرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم بما وراء هذه المادة التي في متناول الحس البشري ، ثم يورد أمثلة بشرية ممكنة في علم الفلك لم تكن في علم الإنسان من قبل .

ثم يقول : وقد تعرض الكاتب للإشارة إلى الإسراء والمعراج وعبر عنهما بأنهما رؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الأحاديث الصحيحة المتواترة صريحة في أنهما لم يكونا في عالم

---

(١) المصدر السابق وانظر أيضا مادة : «اسراء فى دائرة المعارف ٢/١١٠ للمستشرق شيترك الذى لاينفى الاسراء والمعراج بالروح والجسد ولا يثبته ٠

الرؤيا ، إنما كانا في اليقظة بالجسم والروح ، وكان هذا موضع الإعجاز ، وكان هذا مما أنكرته قريش . . وتبع الكاتب بعض من أخطأ من الكاتبين الإسلاميين فزعموا أن الإسراء والمعراج بالروح ، توهماً منهم لحديث زعموه عن عائشة أنها ما فقدت جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وهو حديث لا أصل له ولا إسناد ، بل هو حديث مكذوب مفترى ، وعائشة إنما دخل بها بالمدينة ، والإسراء كان بمكة قبل الهجرة .

والمعجزة السابقة نموذج لجحود المستشرقين نبوة الرسول ، وبينما هم أو بعضهم يصدق بخوارق الأنبياء الآخرين ومعجزاتهم كموسى عليهما السلام فإنهم يستكثرون أن تقع أمثال هذه الخوارق على يد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا بهم ينكرون وقوعها ويعدونها من الأساطير والخرافات . غلى أن المعتدل منهم مثل (دينه وبودلي وكارليل) وغيرهم يحاولون أن يستدلوا على نبوة الرسول بالمعجزة الوحيدة ــ القرآن ــ المعجزة الفكرية الخالدة ، ويهملون أية سمة أخرى من سمات معجزات النبوة ، بل إنهم يصوغون ذلك في أسلوب المديح والثناء « بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدّع أنه خاطب الملائكة أو أتى بالعجائب أو خرق القوانين الطبيعية والسنن الكونية ، إنما هو بشر مثلهم » وهؤلاء وأولئك لا يهدفون إلى النيل من نبوة الرسول ورسالته وحسب ، وإنما يهدفون أيضاً إلى إنكار النبوة ورفضها لدى المستشرقين المغرضين ، والتقليل من أهميتها والنيل منها عند المستشرقين المعتدلين .

ومع أن معجزات الرسول من انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتكثير الطعام ، ونبع الماء . . ثبتت بالأحاديث الصحيحة ، وأحياناً المتواترة بعدد طرق إسنادها ، فإن إنكار مستشرق أو إغفاله من هذه الروايات الصحيحة لا يضعف شيئاً من إيمان المؤمن بها ولا يحيل العقل الإنساني وقوعها . مع أن التحقيق التاريخي الحديث كشف عن ثبوت بعضها كحادثة إنشقاق القمر . . .

يقول (دينيه) (١) أن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في تمام رسالته على المعجزات ، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

« وَمَا مَنَعَنَا أنْ نُرْسِلُ بالآيَاتِ إلاّ أنْ كَذَّبَ بِهَا الأوَّلُون »(٢) .

و (دينيه) على زعمه يعارض (رينان) الذي يمدح عيسى عليه السلام ويقول عنه وعن معجزاته : ولعل أكبر معجزات عيسى أنه لم يفعل منها شيئاً ، ثم هو يقول : باستحالة أمثال هذه المعجزات لمخالفتها لقواعد التاريخ وأصول علم النفس . وتأثر بعض الباحثين المسلمين من المدرسة العقلية بهذا الرأي فقال(٣)

---

(١) فى كتابه : أشعة خاصة بنور الاسلام ، وقد سبق له أن ذكر مثله فى كتابه : محمد رسول الله (٢) الاسراء : ٥٩

(٣) العقاد فى كتابه : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : ص ٥٨ وما بعـــد .

فليست الخوارق مما يغني النبي في دعوة المكابر المفتون ، أنه ليزعمها ضرباً من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء باباً من السماء . . إلى أن يقول : وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول غير مشروطة بما غبر من الأوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والأنباء بالمغيبات :

« وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لله فانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظَرِين »(١).

ثم يستشهد بآيات أخرى تؤكد معنى هذه الآية من اختصاص علم الغيب بالله وحده . . ومع أن هذا أمر لا يدخل في موضوع المعجزات التي يخرق الله بها سنناً كونية بسنن كونية أخرى . .

فقد أوضح علماؤنا في القديم وكتابنا وباحثونا في الحديث حقيقة المعجزة وإمكانها وثبوتها للأنبياء جميعاً « فالإسلام يقرر المعجزة ، وهي الأمر الخارق الذي يحصل على يد نبي مرسل إدلالاً بصدق نبوته ، وليس في المعجزات منافاة للعلم المادي ، وإنما هناك قصور من أجهزة العقل والإدراك عن معرفة الأسباب التي انعقدت لها المعجزة فضلا عن إيمان المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو صانع السنن والنواميس والقوانين ، وهو وحده

---

(١) يونس : ٢٠

القادر على خرقها على النحو الذي كشفت عنه الكثير من المواقف مع الأنبياء . . وفي مقدمة المعجزات معجزة القرآن ، فهي معجزة قائمة أبد الدهر ، تمتاز عن معجزات الرسل والأنبياء بأنها باقية ، ومعجزة القرآن إنما تمثل في مطابقته الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل . . » (١) .

٣ ـ شبهات شرعية

ومنها ما يتعلق بالعبادات : كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وما يتعلق بالمعاملات كأنواع التعامل الإسلامي ، ومنها ما يتعلق بالحكم والجهاد . وسأقتصر على :

١ ـ في الحج :

١ ـ يقول (در منغم) (٢) : أبقى محمد (صلى الله عليه وسلم) شعائر الحج كما كانت عليه قريش في العهد الجاهلي ، خلافاً لآمال أهل المدينة ، فأراد بذلك اجتذاب قريش إلى الإسلام والارتقاء بهم إلى ما فيه سمو الروح وتقريبهم من تعاليم الكتاب المقدس . . » .

وهذه شبهة تحمل في طياتها شبهات متتابعة تأخذ الواحدة منها برقاب الأخرى ، ولو لم ينسب المستشرق أعمال الحج إلى

(١) أنور الجندى فى : شبهات التغريب ص ٢٦٤ ويلاحظ أنه أخفى الاشارة عن سائر المعجزات المادية للرسول عليه الصلاة والسلام .
(٢) من كتابه : حياة محمد ٣٦٧

الرسول لآثرنا عدم مناقشته في هذه الشبهة (١) ويمكن تحليل الشبهة السابقة إلى :

(أ) أن (در منغم) يشعر القاريء أن أعمال الحج ومناسكه من صنيعه هو أراد به أن يحقق آمال القرشيين ويجتذب قلوبهم إلى الإسلام ، ولكن متى كانت قضايا الإسلام وأحكامه تابعة لأهواء نبي أو رسول ؟

« إنْ هوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى »(٢) .

وهل يمكن أن يقتنع إنسان بأن هدف الزعامة السياسية أو التنازل عن مباديء الحق أو المساومة عليها تخطر لنبي مشهود له بالصدق والأمانة والتبليغ ؟ وإذا أراد هذا المستشرق أو غيره إقامة دعوى كهذه أو غيرها فأين دليلها ؟ وأين مصدرها ؟ وأين وجه الإقناع بها ؟

(ب) إن در منغم يريد أن يثبت أن مناسك الحج من متابعته قريشاً في حجها وليس من ملة إبراهيم عليه السلام ، وهذه أيضاً دعوى لم يثبتها بحجة ولا دليل شرعيين ، ولكن الثابت عكس ما ادعاه ، ففي صحيح مسلم واللفظ له وأبي داود والنسائي والدارمي ، وابن ماجه وغيرهم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن حسين فأهوى بيده إلى رأسي

---

(١) هناك بحث مطول عن شبهات المستشرقين فى الحج للمؤلف نشر فى مجلة التضامن الاسلامى ، الجزء العاشر ١٣٩٩هـ-١٩٧٩ م

(٢) النجم : ٤

فنزع زري . . فقلت : أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بيده فعقد تسعاً فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس . . » (١) .

ومن التعليقات الاستنتاجية : « هذا الحديث فيه إبطال ما أدخلته الجاهلية على الحج مما ليس في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وهو أن قريشاً كانت في الجاهلية تقف بالمشعر الحرام وهو جبل في المزدلفة يقال له (قزح) ، لأن المزدلفة من الحرم ، وعرفة من الحل ، ويقولون : نحن سكان الحرم فلا نخرج منه فظنت قريش أن النبي صلى الله عليه وسلم يقف في المشعر الحرام على عادتهم ولا يتجاوزه ، فتجاوزه النبي إلى عرفة لأن الله أمره بذلك في قوله :

---

(١) شرح مسلم ٨ـ١٨١ ، وأبو داود ٢ـ١٨٧ ،والترمذى :٣ـ٣١

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » (١) . أي سائر العرب » (٢) .

٢ ـ زعمهم أن الحج خليط من الوثنية والسامية :

(أ) رمي الجمرات : زعموا أن رمي الجمرات شعيرة أخذها الإسلام عن الوثنية فلم ينص عليها صراحة في القرآن ولكنها ذكرت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الحديث . ففي أيام الوثنية كانت لدى الجمرات أنصاب مخضبة بالدماء تنحر عندها الأضاحي . ويقول المرحوم أحمد محمد شاكر معلقاً : ليس رمي الجمرات من آثار الوثنية كما يظن كاتب المقال وإنما كانت من شعائر الحج قديماً في دين إبراهيم وبقيت منه بقايا توارثها العرب ودخلها كثير من التحريف ، فلما جاء الإسلام أعاد شعائر الحج عبادة خالصة لله وحده ، والإسلام دين التوحيد ، وكان رسول الله يحرص على أن لا يدخل على المسلمين في عملهم وقولهم واعتقادهم شيء من شائبة الاشراك بالله .

(ب) الإحرام ومحرماته ، وزعموا أن الغسل للإحرام والتخضيب شعائر كانت تتصل قديماً بالصلوات التي يقصد بها طرد الشياطين . وثوب الإحرام ربما كان الثوب المقدس عند قدماء الساميين لذلك كانت صورة الكهان وأردية الزهاد بيضاء

---

(١) البقرة : ١٩٩

(٢) اخذ التعليق من كتاب : دراسات تطبيقية فى الحديث النبوى الدكتور نور الدين عتر ١٩٨٠

وليس الفعل عادة سامية ، كذلك كان إهمال العناية بالبدن ظاهرة معروفة بين الشعوب السامية في الأحوال الدينية ، وربما كانت عادة الصيام مرتبطة بغيرها من عادات الجاهلية فيما يشبه الإحرام .

والرد السابق صالح في هذا الموضوع ، ويمكن إضافة توضيحية كما يلي : الإسلام شريعة الله وهو ذو شخصية مستقلة عن الشرائع الأخرى ومتميز عنها ، وغير متأثر بواحدة منها ، وإذا وجد تشابه بين نسك إسلامي وعمل سابق تحققنا من نسبته إلى شريعة سماوية فالإسلام لا يمانع أن يقر النسك الإسلامي على أنه من دواعي الفطرة الإنسانية . مثلا : فالغسل والتخضيب ولبس الأبيض وغيرها من الفطرة وهي مما لا ينكره الإسلام طالما إنها مبنية على دعامة الوحيد الخالص . على أن دعوى وثنية أو سامية مناسك وتشابهها مع مناسك الحج التي يفترضها المستشرق لم يقم عليها دليل تاريخي موثوق إلا ما كان يتصل بعبادة إبراهيم عليه السلام وإهمال البدن الذي عرف بين الشعوب السامية لا يقره الإسلام لا في الحج ولا خارج الحج ، فالوضوء والغسل والطهارة من عبادات المسلم في كل حين .

(ج) الجهاد (١) :

الجهاد قتال وإخضاع :

فأكثر المستشرقين يعرض الجهاد على أنه سيف الإسلام

(١) انظر مثالا مستفيضا عن الجهاد للكاتب : مجلة التضامن عدد المحرم ١٣٩٩

المصلت الذي لم ينتشر إلا به ، وبالعنف وبالقوة اللذين استطاع بهما الإسلام أن يجتاح العالم بالسرعة الخاطفة التي لم تتحقق لدين آخر وهو والموت صنوان لايفترقان وما يتصل به من تخريب وإفناء ووحشية وما يدفع إليه من إرادة القتل ورغبة في سفك الدماء وما يقيمه من استبداد في تحكيم المبدأ بالسيف . وإجبار الإنسان على اعتناق الإسلام وقهره على ذلك . هي بعض مفترياتهم على الجهاد حتى لكأن الدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقناع الفكر بالحقائق الإسلامية ، واستجابة الشعوب للإســـلام عن طواعيّة ورضى ، وإعلان الإسلام لحرية العقيدة والفكرة والكلمة بالمعنى الإسلامي وغيرها لم يدع إليها الإسلام في قليل ولا كثير .

يقول (ماكدونالد) ــ هكذا في مطلع دراسته لمادة «الجهاد» : نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة . ولتأكيد هذا المعنى الجهادي المحرف يشير إلى أمور أبعد ما تكون عن الصحة :

(أ) فكرة (إخضاع الناس) على حد قوله غاية الكتب والرسائل التي كان يرسلها الرسول إلى الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام يقول (ماكدونالد) : ثم إن قصة كتابته إلى الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام تبين أن هذا الموقف حيال الناس جميعاً كان يخالجه .

وقد عقب المرحوم أحمد محمد شاكر على ما مضى بقوله :
من المفهوم أن كاتب المقال يكتب متأثراً بعقيدته في الإسلام وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما المسلمون والمنصفون فإنهم إذا فهموا القرآن حق فهمه وعرفوا مقاصد الإسلام وروحه ودرسوا سنة الرسول وسيرته علموا أن التشريع الإسلامي في الجهاد تشريع دقيق ولم يكن عن تطور أو ارتجال في الرأي وإنما هو وحي من عند الله ليجعل هذا الدين دين الإنسانية كلها ويظهره على الدين كله كما وعد الله وسيكون كما وعد :
« وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » (١) .

وتصوير الجهاد الإسلامي على هذا الوجه الاستشراقي التبشيري شوه الفتوحات الإسلامية وأهداف الجهاد التي قصد إليها الإسلام « قصداً » يقول (كرين) (٢) :

ويمتدح شيوخ المسلمين بصفة عامة إكراه أي شخص على واجبات الجهاد . ويعلق المرحوم أحمد محمد شاكر قائلا :
وأما الإسلام وعلماء الإسلام فإنهما بريئان من إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام .

وهناك جهاد بالكلمة والدعوة ، وجهاد بالعلم وطلبه ونشره ، وجهاد بالمال كسبه وإنفاقه ، وجهاد النفس أهواءها مما يدخل ضمن مفهوم الجهاد بمعناه العام كما هو معروف ومشهور .

---

(١) ص : ٨٨
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٩ـ٥٧٤

٣ ـ **الاسلام دعوة تبشير ليس غير :**

وهي شبهة مناقضة للشبهة السابقة ، لأنهم يعدون أن الجهاد كان مرحلة في عصر النبوة وانتهى أمرها ، أما ما بقي من الإسلام بنظرهم فهو مواعظ ورهبنة ودروشة ، وربما قال بعضهم : إن الجهاد في الإسلام دفاعي لا يقاتل إلا حين يهاجم في عقر داره ، يقول المودودي : دعونا نعتذر إلى القوم نبدل الكلم عن موضعه ونقول لهم : : ما لنا وللقتال أيها السادة ، إنما نحن مبشرون ، ندعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن حتى يؤمن من يؤمن . . أما السيف والقتال فمعاذ الله أن يمت إليه بصلة . هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا القناع عن بعضها (١) . ولا شك أن هذه الشبهة قد أفادت الاستعمار البريطاني في سيطرته على الهند بواسطة فرقة (القاديانية) التي كانت تشيع إبطال الجهاد القتالي في الوقت الحاضر .

(١) من كتابه : الجهاد فى سبيل الله

ثانيا : من أغلاطهم وأخطائهم

١ ـ تصنيف أغلاطهم وعواملها

٢ ـ أمثلة منها :

- من حياته قبل البعثة
- في بدء الوحي
- في أول دعوته
- في بعض أعماله وتوجيهاته
- في عقيدته في الله
- في هجرته
- في زواجه
- في بعثته
- في بعض غزواته والفتوحات الإسلامية

ثانيا : من أغلاطهم وأخطائهم

١ - تصنيف أغلاطهم وعواملها :

صنف (محمد كرد علي) أغلاط المستشرقين (والإفرنج) عامة أصنافاً متعددة فهو يقول :

من نظر في كتب من يعالجون من الافرنج مسائل المسلمين والإسلام ، يقع فيما دونوه على أغلاط مستغربة قد تدعو إلى سوء الظن ببحثهم ودروسهم ، وتكثر هذه الأغلاط ، وتقل بحسب بعد المؤلف ، وقربه من ديار الإسلام ، وأقل الكاتبين غلطاً في هذا المعنى علماء المشرقيات . ثم قسم هذه الأغلاط إلى أقسام منها : الغلط اللفظي ، ومنها الغلط الفكري أو الحسي ، ومنها ما ينشأ عن جهل الكاتب موضوعه ، كأن يرجع إلى كتب ضعاف المؤلفين عندهم ، من أمثال : أرباب الرحلات المرتجلة ، والقصص الملفقة ، وكتابات المؤرخين المستأجرين ، والصحافيين المهرجين ممن يهمهم أن يحملوا إلى قرائهم كل غريب ، فإن لم يجدوا اخترعوا ما تمليه عليهم مخيلاتهم وأوردوه في معرض الحقائق ، ومنها الخطأ العمد ، وهذا ما يسوق إليه التعصب الديني أو الغرض السياسي ، أو كلاهما معاً (١) .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٢١-٣ سنة ١٩٤٦

ثم يورد (محمد كرد على) أمثلة من الأغلاط التاريخية لا صلة لكثير منها في بحثنا غير مثالين :

١ ـ في كتابه : فلسفة التاريخ (لتوز) :

يقول المؤلف : ان خلفاء الغرب (يعني بني أمية في الأندلس) ساروا على مذهب (علي) ، رابع خلفاء محمد (أي كانوا علويين) والغالب أنه نقل هذا عن (جيون) في كتابه : عظمة المملكة الرومانية وانحطاطها .

ويقول (تونر) ان علياً كان وزير محمد وهو شاب ، لم يتجاوز الرابعة عشرة من سنه .

٢ ـ في كتاب : التاريخ السليم للأمة الفرنسية : سينوبوس :

يقول ان صاحب الرسالة كان رجلا جباناً ، وسوداوياً ، تنتابه عوارض من الحمى ، وتعروه نوبات عصبية ، وان المسلمين اعتادوا منذ القرن العاشر أن يغالوا ببلاغة القرآن . .

وبعد أن يورد كتباً أخرى ، وأغلاطها يقول : فكثيراً ما وددت لو قام بعض أرباب الكفاءة منا فنشروا في القاهرة أو دمشق أو بغداد مجلة تعني برد ما ينشر من هذا القبيل في الكتب والمجلات الافرنجية ، تدفع به هذه الأباطيل المقصودة عن تاريخنا ومقدساتنا . . (١) . ويمكن تصنيف أغلاط المستشرقين إلى :

---

(١) المصدر السابق

ذوقية بلاغية كأخطائهم في ترجمات القرآن . وشرعية : كأخطائهم في معنى استصحاب ، وأضحية ، واعتكاف ، ولغوية مثل : الأغلاط في ذيل المعاجم العربية : (لدوزي) ، وأخطاء منكرة مثل كلامهم عن الرحمن — صلاة الاستسقاء ، والجهاد وذي الحجة . وأخطاء من تهيؤاتهم وخيالاتهم مثل : اختيار عثمان خليفة المسلمين . وأخطاء من تحريفاتهم مثل انكارهم عاداً وثمود في القرآن ، وأخطاء في عزو الأقوال والأبواب والفصول إلى مواضعها الصحيحة ، وأخطاء إحصائية وتطبيقية في : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، وكتاب : مفتاح كنوز السنة ، وكتاب : تفصيل آيات القرآن ، وكتاب : الري في غوطة دمشق (١) .

ومن العوامل التي أدت إلى تراكم الأخطاء واستفحالها : توسع المعارف الإسلامية ، وعجمة المستشرقين ، وجهالتهم ، ودسهم على الإسلام ونبيه . .

ومن نافلة القول أن أي باحث تعد له عثرات سها عن بعضها ، ولم يصل علمه إلى بعضها الآخر ، وربما كان في مقدمات الدراسة ضعف أو خلل أدت إلى نتائج اختلط فيها الغث والسمين والصواب والخطأ .

---

(١) انظر معانى المصطلحات السابقة فى دائرة المعارف الاسلامية وتعليقاتها ، وانظر مطلع النور ص ٨٣ وذو النورين ص ١٥١ ومقال فادولا رماذ نشر فى الازهر ١٩٥٩للعقادوكتاب : الاستشراق والدراسات الاسلامية : عبد القادر العانى ، وقد جمعتها فى مقال مستفيض ، لا حاجة الى اعادته هنا .

فإن روجع في عثراته ، وبينت له أغلاطه لم يمار في الجدال ولم يشتد في الخصومة بل عاد إلى الحق لأن العودة إليه فضيلة علمية يتصف بها العلماء والثقات .

أما المستشرقون فغالباً ما يوقعون أنفسهم في أخطاء مقصودة منكرة حتى يتبينوا مداها لدى المثقفين المسلمين . فإذا انتبهوا لها ونبهوا أصحابها إليها اعتذروا حيناً واستمروا على خطئهم حيناً آخر ، وإلاّ فأخطاؤهم تصبح حقائق ، وأغلاطهم تغدو مسلمات علمية يستشهد بها في النوادي العلمية والأدبية .

وقد بين بعض الباحثين العرب شيئاً من هذه الأخطاء من أمثال : الرافعي ، والعقاد ، وكرد علي ، والجندي ، وقطب ، وغيرهم . ولعل من أوائل من تصدى لأخطائهم بمقالات مطولة : الأب أنستاس الكرملي ، في مجلة المجمع العلمي العربي في الثلاثينات وابراهيم اليازجي الذي انتقد معجم (دوزي) في العربية (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بعض المستشرقين يكشفون عن أخطاء زملائهم في التاريخ واللغة والشريعة والفنون والآداب . وقد سقت شيئاً من أخطائهم وتصويباتها من قبل .

ويبدو أن معظم الأخطاء المقصودة إنما هي شبهات ومطاعن ، وتتداخل مع تخبطاتهم وتحريفاتهم ، فليست هناك حدود فاصلة بين هذه الأمور .

---

(١) أنظر آداب العربية : لويس شيخوص ٢٤

٢ ـ أمثلة منها :

من حياته قبل البعثـة

١ ـ في لعبه : يقول (أرفنج) : وبينما كان يلعب محمد في الحقول مع أخيه في الرضاع . . ثم تحدث عن حادثة شق الصدر (١) .

* **والصواب** : انه لم يكن ثمة حقول ولا غابات في مرضعه ، ولم ينقل ذلك في كتب السيرة . ففي (السيرة النبوية) لابن هشام : قالت (حليمة) فرجعنا به ، فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لي ولأبيه : ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان . . (٢) وفي (البداية والنهاية) قريب من رواية ابن اسحاق السابقة ، يقول : فسرحته معنا ، فأقام به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاء أخوه يشتد . . (٣) .

٢ ـ وفي فتوته التي حماه الله فيها من أمور الجاهلية ، يقول (در منغم) : حاول محمد مرتين أن يبلغ أماكن الضواحي السهلة ليقضي حاجات شبابه . . ولكن حالا مفاجأة كانت تثنيه (٤)

---

(١) كتابه ص ٣٤

(٢) ١ـ١٧٣ والبهم : الصغار من الغنم واحدتها بهمة ، ومعنى يشتد : أى يسرع

(٣) ٢ـ٢٧٤ (٤) من كتابه ص ٦٩

والصواب الذي في (البداية والنهاية) من رواية البيهقي بسنده عن علي بن أبي طالب ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهتمون به من النساء إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما ، قلت : ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن في رعاء أهلها ، فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة ، أسمر فيها كما يسمر الفتيان ؟ فقال : بلى . قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان فلانة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني ، فو الله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس .. ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي . . (١) . ولفظ (الكامل لابن الأثير) : . . . ما هممت بشيء مما كان في الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته . . (٢) . وكذلك في الطبري بألفاظ قريبة (٣) .

٣ ــ وفي تعبده : أنه قرب شاة بيضاء للعزى(٤) ، ولكن ابن هشام في السيرة ينفي أي دنس في تعبده ، يقول : فشب رسول الله ، والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته (٥) .

أما (ابن كثير) فيروي عن البيهقي بسنده عن زيد بن حارثة

---

(١) ٢ــ٢٨٧ (٢) ٢ــ٣٨ (٣) ٢ــ٢٧٩
(٤) در منغم ص ٧٥ (٥) ١ــ١٩٤

قال : كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله وطفت معه ، فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله : لا تمسه . قال زيد : فطفنا ، فقلت في نفسي : لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته ، فقال رسول الله : ألم تنته ! (١) .

* **أقول** : إذا لم يشهد رسول الله مشاهد الجاهلية ، ولم يمس الأصنام ونهى عن مسها فمن أين يأتي هؤلاء بأخبار انه تقرب بشاة بيضاء ؟ . .

٤ ــ وبالنسبة إلى عمل الرسول قبل البعثة ، يقول (درمنغم) : كان لمحمد دكان في مكة حيناً من الزمن (٢) .

* **والصواب** : أن مصادر السيرة لم تؤيد ذلك ، ثم يقول : فصار محمد يقود قوافل خديجة في طول جزيرة العرب وعرضها (٣) . ويقول (أرفنج) بعد عدة سنوات من زواج الرسول بخديجة استمر يعمل في التجارة . . ويقوم برحلات بعيدة مع القوافل(٤) ، ويقول (بدلي) : فما جاوز محمد السادسة عشرة حتى تعددت رحلاته ففاقت ما يقطعه مكي سواه طول حياته ، فصارت الرحلات التي يخرجها من مكة إلى اليمن والشام وفلسطين وفارس أمراً عادياً يحاكي في عادته خروج أقرانه لزيارة الكعبة .

---

(١) ٢ــ٢٨٨
(٢) من كتابه ص ٦١
(٣) المصدر السابق
(٤) من كتابه ص ٥٣

* **والصواب** : أن الرسول عمل قبل البعثة برعي الغنم وبالتجارة . أما تجارته على الصورة التي رسمها هؤلاء فهي غير معروفة من سيرته ، فلم يخرج الرسول إلى اليمن وفارس ، ووصل أطراف دمشق ، ولم يدخلها ، ورحلاته معدودة . ولعل هؤلاء يقصدون من تكثير خروج الرسول من مكة أمرين : **الأول** : إطلاعه على الديانات السابقة والحالية واتصاله بأربابها . **والثاني** : حنكته ودهاؤه ومواهبه التجارية التي اكتسبها ليكون قادراً على سياسة الناس .

٥ ـ **تعلمه من الآخرين** : فقد ذكر (بدلي) أن الرسول كان يجالس (بحيرا) ويتعلم منه طويلا ، يقول : فراح الراهب يحادث العربي الصغير وكأنما يحادث رفيقاً من رفقائه ، فأخبره بعقيدة عيسى ، وسفه عبادة الأصنام ، وأرهف محمد السمع إلى ما ينطق الرجل به (١) ، وفي موضع آخر يقول : وكان على محمد أن يتلقى نزراً يسيراً من التعلم المدرسي ، ولكنه كان يحصل أكثر من أي طالب يمضي سحابة يومه في حجرة الدرس(٢) وكذلك يتحدث هو وغيره عن تأثيرات نصرانية ونسطورية عن طريق سوق عكاظ ، وخطب قس بن ساعدة (٣) **والصواب** : أن الرسول لم يثبت عنه أنه رأى الكتاب المقدس أو قرأ فيه وذلك على الرغم من تشابه بينه وبين القرآن في بعض القصص القرآني .

---

(١) من كتابه ص ٥٠ (٢) المصدر السابق ص ٤٨
(٣) المصدر السابق ص ٤٨

وأن الرسول حين لقي (بحيرا) كان في سن التاسعة ، ومن غير المعقول أن مقابلة واحدة يمكن أن تترك كل هذا الأثر . وكذلك فإن ما دعا إليه الرسول من عقيدة التوحيد الإسلامي ، وبيان طبيعة الأنبياء ، ووصف الجنة والنار ، وبيان التشريع والأخلاق يخالف كل المخالفة لما عليه نصارى نجران والنساطرة .

ومن الإغراب في القول أن يصور أنه كان في مكة مدارس ، وأن محمداً رسول الله كان أحد طلابها المتفوقين مما لم يذكره أحد من كتاب السيرة .

٦ — وفي بدء الوحي يقول (فنسنك) : بعد ظهور جبريل لأول مرة ، وإصابة النبي صلى الله عليه وسلم (بالغشيان) ملئت خديجة فزعاً ، فلجأت إلى راهب ملحد منبوذ يدعى (سرجيوس) ، فطمأنها وأكد لها أن الملك جبريل يرسل لجميع الأنبياء .

* **والصواب** : أن الرسول لم يصب بما يسميه (الغشيان) وإنما هي قشعريرة تنتاب الخائف ، ولم تفزع خديجة من ذلك بل كانت تثبت قلب الرسول بقولها : والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . أما (سرجيوس) فيقول أحمد محمد شاكر عنه : الزعم أن قصة خديجة كانت مع من يدعى (سرجيوس) خطأ ، ومخالفة للأحاديث الصحيحة الثابتة (ثم يذكر حديث البخاري في بدء نزول الوحي) إلى أن يقول : فهذا صريح

في أنها ذهبت إلى ابن عمها العربي النسب ، ولم تذهب إلى رجل أعجمي يدعى (سرجيوس) (١) .

٧ ــ وفي بدء دعوته ، يقول (أرفنج) : وقد وجه محمد همه إلى رجالات قريش من بني هاشم(٢) ثم يقول : بدأ محمد الدعوة جهراً (٣) .

وصوابه : كما جاء في (الكامل) لابن الأثير : فكان يذكر ذلك سراً لمن يطمئن إليه من أهله ، فكان أول من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته (٤) وفي تاريخ (الطبري) : فجعل رسول الله يذكر ما أنعم الله عليه وعلى العباد من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله (٥) وللطبري أيضاً من حديث عمرو بن عنبسة قال : أتيت رسول الله وهو نازل بعكاظ ، قلت : يا رسول الله ، من تبعك على هذا الأمر ؟ قال : اتبعني عليه رجلان : حر وعبد : أبو بكر وبلال ، قال : فأسلمت (٦) وفي الطبري أيضاً : قال آخرون : كان أول من آمن واتبع النبي من الرجال زيد بن حارثة مولاه (٧) وفي رواية أخرى : أن علياً كان السابق للإسلام .

إذاً بدأ رسول الله دعوته السرية بأهله وأصدقائه الذين كان

---

(١) دائرة المعارف : ٩ــ٥٧٤ (٢) فى كتابه ص ٥٣
(٣) المصدر السابق ص ٦٢
(٤) ٢ــ٥٠ (٥) ٢ــ٣٠٦ (٦) المصدر السابق ٢ــ٣١٤
(٧) المصدر السابق ٢ــ٣١٦

يطمئن إليهم . أما الجهر بالدعوة فذلك ما ذكره الطبري أيضاً بقوله : ثم إن الله عز وجل أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه فيه وأن يبادي الناس بأمره ، ويدعو إليه (١) .

٨ – وفي حزنه على وفاة خديجة وأبي طالب ، يقول (أرفنج) ص ٩٦ : ارتدى محمد ثياب الحداد على زوجته ، وعلى عمه أبي طالب ، وسمى ذلك العام بعام الحزن .

والصواب : أما تسميته ذلك العام بعام الحزن فقد ورد ذلك في بعض السير ، وأما لبسه ثوب الحداد فغير صحيح .

يقول ابن الأثير في الكامل : توفي أبو طالب وخديجة قبل الهجرة بثلاث سنين ، فعظمت المصيبة على رسول الله بهلاكهما ، فقال رسول الله : ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب (٢) .

ونقل (ابن كثير) في تاريخه عن ابن إسحاق قوله : ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد ، وقال البيهقي : بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام (٣) وفي موضع آخر يروي الحافظ أبو الفرج بن الجوزي بسنده عن ثعلبة ابن صغير ، وحكيم بن حزام ، قالا : لما توفي أبو طالب وخديجة – وكان بينهما خمسة أيام اجتمع على رسول الله

---

(١) المصدر السابق ٢–٣١٨ وانظر ابن هشام ١–٢٨٠
(٢) ٢–٩٠ – ٩١ (٣) ٣–١٢٧

مصيبتان ، ولزم بيته وأقل الخروج ، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه (١) .

٩ — وفي منبر الرسول عليه الصلاة والسلام يقول (درمنغم) فصار يقف عند الوعظ على واحدة من درج هذا الموطيء الذي كان كرسياً ومنبراً وعرشاً في آن واحد حاملا بيده حربة صغيرة ، أو عصا مرصعة بالذهب والعاج فيرسم بها بعض نقاط خطبته ، وكان بلال الحبشي . . يقف في أسفل المنبر حاملا سيفاً بسيطاً ذا مقبض فضي ، وما كان محمد ليتخذ هذا الأسلوب مع بساطته إلا في أواخر عمره ، أي بعد أن تم له من النصر ما تم ، ليؤثر في العرب . .

* **والصواب** : أن الرسول لم يتخذ كرسياً ولا عرشاً بل كان يجلس مع صحابته حتى لا يميزه القادم من بينهم ، وكان لا يتخذ عصاً مرصعة بالذهب ولا يحمل سيفاً مقبضه فضي ، لأن استعمال الذهب والفضة محرم في الإسلام ولم تذكر كتب الصحاح شيئاً مما وصف به منبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

١٠ — وفي تسروله عليه الصلاة والسلام : ذكرت دائرة المعارف الإسلامية في مادة (سروال) أن الرسول كان يتخذ السراويل وأيدت ذلك بأحاديث منها : سئل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنك لتلبس السراويل ؟ قال : أجل في السفر

---

(١) المصدر السابق : ٣ـ١٣٤

والحضر ، فإني أمرت بالستر ، فلم أر شيئاً أستر منه . وهو حديث ضعيف جداً ، بل هو لا أصل له لأن أحد رواته وهو يوسف بن زياد البصري منكر الحديث مشهور بالأباطيل (١) . وحديث : يرحم الله المتسرولات من النساء وقوله : تسرولوا أهل الكتاب . وهو كلام لا يعرف له أصل . وحديث اللهم اغفر للمتسرولات من أمتي ، ضعيف جداً لأن أحد رواته إبراهيم بن زكريا ، وكان يحدث بالأباطيل ، وهذا الحديث من بلاياه (٢) .

١١ ــ وفي التعريف بإقامته للصلاة ، يقول (جو نيبل) : إنها نشأت من الآذان الذي نسج فيه على منوال القداس عند النصارى (انظر المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٢٧١ س ١٤ــ١٥). والصواب أن الإقامة لم تنشأ من الآذان وفيها بعض اختلاف في ألفاظها وعدد شهاداتها . . ولم يكن الآذان على منوال القداس ، لأن حديث الآذان الذي أخرجته كتب الصحاح محدود الألفاظ ، معروف التراكيب ، ويقول محمد عرفة معلقاً بعد كلام طويل : وقد رجعنا إلى الجزء الثاني للمقريزي . . فرأيناه أنه عرض للتسبيح في الليل على المآذن الذي ابتدع في مصر في عصر متأخر ، ولم يكن عند سلف الأمة ، فقال : وأول ما عرف عن ذلك أن موسى بن عمران . . الخ فلعلهم وهموا فظنوا (المقريزي)

---

(١) تحقيق أحمد محمود شاكر وقال انظر فتح البارى ١٠ــ٢٣١ ومجمع الزوائد ٥ ــ ١٢١ (٢) المصدر السابق فى المادة نفسها

يتكلم عن أولية الآذان ، وهو إنما يتكلم عن أولية التسبيح الذي يفعل في الليل على المآذن (١) .

١٢ – وفي عقيدته يقول (ماكدونالد) في مادة « الله » ناقلا عن (كريمرو هوتسمان) وغيرهما أخطاء كثيرة وفاحشة ومنها :

(أ) أن محمداً وصف الله بأوصاف هي في الأفراد ذم : كالجبار ، والمتكبر .

والحقيقة أن معناها مما يليق بجلال الله ، فمعنى الجبار : الذي جبر خلقه على ما أراد ، والمتكبر : أي المترفع عن ظلم عباده .

(ب) قالوا أن محمداً وصف الله بعبارات وصفات متناقضة :

* **والصواب** : أن التناقض الذي زعموه لم يبينوه ، ولعلهم يريدون مثل عفو وغفور ، إلى جانب وصفه ، شديد العقاب ، والمنتقم ، ولكن هذه لا تناقض فيها لأنها تختلف باختلاف متعلقها ، فهو غفور عفو عمن تقتضي الحكمة العفو عنه ، وهو منتقم شديد العقاب لمن تقتضي الحكمة بعقابه فهو مثل قوله

« **مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم** » (٢) .

---

(١) أنظر المادة والتعليق عليها مفصلا فى دائرة المعارف : ١ـ٤٥٦

(٢) أنظر المادة وتعليقاتها فى دائرة المعارف الاسلامية ٢ـ٥٦٤

١٣ – وفي إقامة الحدود الإسلامية ، يدعي (در منغم) أن الرسول لم يقم الحد على عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين لنفوذه بين قومه وبين أهل المدينة (١) .

* **والصواب** : أن الرسول مع علمه بأعيان المنافقين وأسمائهم ونفاقهم لم يقم الحد على أي واحد منهم لا على زعيمهم ابن أبي ولا غيره ، وذلك رجاء إسلامهم وانضمامهم إلى صف المسلمين . والله تعالى لم يأمره بقتالهم ، أما قوله تعالى : « **يا أيها النبي جاهد الكفارَ والمنافقين** » .

فقد بين المفسرون أن المقصود بجهاد المنافقين : دعوتهم إلى الإسلام وبذل الجهد لهم في سبيل ذلك . ولو أراد الرسول قتل ابن أُبي لقبل رغبة ابنه عبد الله أن يبادر إلى قتله بعد غزوة بني المصطلق .

١٤ – وفي هجرته : يقول (أرفنج) حين خروجه من بيته : وهناك رواية محتملة الحدوث تقول : أن محمداً قفز من فوق حائط خلفي بالبيت ، وساعده خادمه على النزول بأن أحنى له ظهره فاتخذه سلماً ، واستطاع محمد النزول ومغادرة البيت (٢) .

ويقول أيضاً : لم يبتعدا كثيراً حتّى فوجئا بكوكبة من الفرسان ، يتزعمهم سراقة بن مالك (٣) .

---

(١) من كتابه : حياة محمد ص ٣٠٥ (٢) من كتابه : ص ١١٨
(٣) المصدر السابق : ١١٩

* **والصواب** : أن الرواية المذكورة غير موجودة في المصادر العربية فهي مكذوبة ، أما سراقة فقد ثبت خروجه وحده متخفياً .

١٥ ــ وفي بدء هجرته أيضاً : يقول (در منغم) حين وصوله المدينة : ودخل بيت أبي أيوب ، بينما تبنى له ولزوجاته غرف حول قاعة الصلاة (١) .

١٦ ــ ويقول (أرفنج) : ولم يكن الرسول يحب زوجه سودة حبه لزوجاته الأخريات ، فقد أهمل أمرها بعد عدة سنوات (٢) .

* **والصواب** : أن موضوع الحب أمر عاطفي قلبي لا يدركه الآخرون ومع هذا فإن أمر زواجه من سودة ما يشير إلى رغبة بها وحب لها .

ثم إن الرسول لم تكن له إلا زوجة واحدة حينذاك هي سودة بنت زمعة التي تزوجها الرسول بعد وفاة خديجة . ومن خبر زواجها : أن خولة بنت حكيم قالت : أرسلني محمد ابن عبد الله أخطب عليه سودة ، فقال : كفء كريم ، ماذا صاحبتك ؟

قالت : تحب ذلك . . قالت عائشة : فقدمنا المدينة . . فجاء رسول الله فدخل بيتنا واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء فجاءتني أمي . . ثم قالت هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم ،

---

(١) من كتابه ص ٢٠ (٢) ص ٩٥

وبارك لهم فيك ، . . يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) أيضاً : هذا يقتضي أن عقده على عائشة كان متقدماً على تزويجه بسودة بنت زمعة ، ولكن دخوله على سودة كان بمكة ، وأما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة في السنة الثانية . . قالت عائشة : لما كبرت سودة وهبت يومها لي ، ويروى ابن عباس أن رسول الله خطب امرأة من قومه يقال لها سودة ، وكانت مصبية (كان لها خمس صبية) أوست ، من بعلها مات ، فقال رسول الله : ما يمنعك مني ؟ قالت : والله يا نبي الله ، ما يمنعني منك إلا أن تكون أحب البرية إلى ، ولكني أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية . قال : فهل منعك مني غير ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال لها رسول الله : يرحمك الله ، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل بذات يده (١) .

وهذا دليل واضح على رغبة الرسول بزواجه من سودة وحبه لها ومساواتها في القسم مع غيرها إلا أنها وهبت يومها للسيدة عائشة .

١٧ ـ وفي بعثته للعالم أجمع عربية وأجنبية فإن (مرجليوث) يدعي أن الرسول لم يوجه أي كتاب للملوك والأمراء خارج الجزيرة (٢) وكذلك فإن (موير) يقول : لم يوجه الرسول

---

(١) ابن كثير : ٣ـ١٣٢ ـ ١٣٣ (٢) كتابه : تاريخ الاسـلام ١ـ١٥٧

دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ، ويؤكد هذا الخطأ (بروكلمان) (١) . . بقوله : وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية والصواب هو : ما قاله الله عن بعثة رسوله :

« وما أرسلناكَ إلاّ كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً » (٢) .
وقوله :« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم في صحيحه(٤) من حديث جابر رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي . كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود . . وحديث أبي هريرة (٥) ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضلت على الأنبياء بست : أُعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأُحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون .

١٨ – وفي الفتوحات الإسلامية : فإن (در منغم) باطلاعه القاصر على السنة ينكر هذه الأحاديث ويعدها من تزيدات

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ٧١-٧ (٢) سبأ : ٢٨
(٣) الانبياء : ١٠٧ (٤) (٥٢١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة
(٥) مسلم (٥٢٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة

الخلفاء والقادة (١) ويتابعه كثير من المستشرقين الذين يطعنون بالرسول عن طريق الطعن بحديثه ، وبخاصة أحاديث العلم بأحداث ما قبل الساعة ، والأخبار عن الفتوحات الإسلامية .

فقد أخرج مسلم في صحيحه(٢) من أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب ، وبينما أنا نائم أتيت بمفتاح خزائن الأرض فوضعت بين يدي ، قال أبو هريرة . . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتشلونها (٣) .

وفي فتح القسطنطينية يروي مسلم في صحيحه (٤) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتّى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله ، لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً : فيفتحون القسطنطينية . . وفي الفتوحات الأخرى يروى مسلم في صحيحه

---

(١) أنظر كتابه ص ٣٦٩ (٢) ٥٢٣ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٣) مفاتيح خزائن الارض : أراد ما فتح على أمته من خزائن كسرى وقيصر : تنتثلونها تستخرجون ما فيها (٤) ٢٨٩٧ ـ باب فى فتح القسطنطينية • كتاب الفتن والاعماق ودابق موضعان بالشام قرب حلب •

عن نافع بن عتبه في حديث قوم من أهل المغرب . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تغزون جزيرة العرب ، فيفتحها الله ، ثم فارس ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال ، فيفتحه الله (١) .

١٩ ـ والجهاد شرع لفترة حياة الرسول ولم تكن آياته شاملة لأحوال أخرى (٢) . . وهو خطأ قال به معظم المستشرقين الذين يدعون إن الإسلام انتشر بالسيف ، وقد روجه الاستعمار خشية من أجتياح الإسلام العالم .

* **والصواب** : إن آيات الجهاد بعضها نزلت في غزوات معينة مثل :بدر ، وأُحدٰ ، و الخندق ، وأُخرى كان لها صفة الدوام والاستمرار ، حتى تلك الآيات التي نزلت في غزوات معينة ، فإن العلماء يقولون : العبرة بعموم اللفظ و ليس بخصوص السبب ، وكذلك أحاديث الفتوح السابقة .

ومثلها : أحاديث الحض على الجهاد والشهادة من مثل حديث مسلم في صحيحه (٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق . ومنها الأحاديث التي بينت فضل الجهاد في البحر ، عن أنس بن مالك .

---

(١) ٢٩٠٠ ـ باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال ـ كتاب الفتن .

(٢) در منغم ص ١٩٦ .

(٣) ١٩١٠ ـ باب ذم من مات ولم يغز .. وكذلك أحاديث ـ ١٩٠٨ و ١٩٠٩

ومنها : قلت ما يضحككَ يا رسول الله ، قال : ناس من أمّتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة (١) و في رواية : ناس من أمّتي عرضوا علي يركبون ظهر هذا البحر الأخضر . .

٢٠ — وفي غزوة حنين : يقول (درمنغم) : بعد نهاية قتال المسلمين في حنين ، انتهى المساء بعربدة وانقضاض على الأسيرات . . (٢) .

* **والصواب** : ان المساء لم ينته بعربدة وانقضاض على النساء كما ادعى ، فقد جاء في (البداية والنهاية) : وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشتركة بهذا الحديث ، وخالفهم الجمهور . . (٣) وفي تاريخ الطبري : فأمر رسول الله بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها (٤) وفي مكان آخر يقول (٥) وكان قدم سبي هوازن حين سار إلى الطائف إلى الجعرانة فحبس بها . . (ثم) أتى وفد هوازن رسول الله وهو بالجعرانة ، وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله : انا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفي عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك . . فقال رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا

---

(١) ١٩١٢ ـ بروايات متعددة ، كتاب الامارة باب فضل الغزو فى البحر .
(٢) من كتاب ص ٣٦٢ (٣) ٤ـ٣٤٠
(٤) ٣ـ٨١ وكذلك ابن هشام ٢ـ٢٩٤
(٥) المصدر السابق ٣ـ٨٦ وانظر تفسير القرطبى فى الآية ٨ـ١٠٢

يا رسول الله : خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا . . ثم رد الرسول ماله ، وما لبني عبد المطلب إليهم ، وردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم . وفي (الكامل لابن الأثير) : وأمر رسول الله بالسبايا والأموال فجمعت في الجعرانة ، وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعي (١) ويقول القرطبي في تفسيره : وفي هذه الغزاة أمر رسول الله ألا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض حيضة ، وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعي ومالك والشافعي وأحمد واسحاق وأبو ثور في قوله تعالى : إلا ما ملكت أيمانكم (٢) فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن . ويصححه القرطبي أيضاً (٣) .

إذاً فلم تكن عربدة ولا انقضاض على النساء بعد الغزوة ، وإنما كان صون للسبايا في مكان بعيد في الجعرانة يشرف عليهن بديل بن ورقاء ، ثم من أسلم من هوازن أخذ سباياه ومن لم يسلم منهم اعتبرت سباياه ملك يمين ، ولا يجوز الزواج من واحدة إلا بعد استبرائها وانتهاء عدتها .

وهناك أخطاء غيرها تعمد طرحها المستشرقون حتى يطعنوا بالإسلام ونبيه . وقد يلاحظ القاريء أن بعضها أقرب إلى المطاعن والشبهات منها إلى الأغلاط والأخطاء وقد تكون الملاحظة مصيبة ولا خلاف على التسمية والتصنيف . ولكن من الثابت أن لا يراد مثل هذه الأخطاء هدفاً استشراقياً مغرضاً يشوه فيه مزايا الإسلام وسمات الرسول ونبوته .

---

(١) ٢ـ٢٦٦ (٢) النساء : ٢٤ (٣) ٥ـ١٢١

ثالثا ـ من تخبطاتهم فى دراساتهم وتعارضها :

١ ـ تخبطاتهم مع أنفسهم :

(أ) أغراب (مرجليوت) وتشكيكه في نسب الرسول

(ب) مزية السيرة النبوية عند (رينان)

(ج) الوحي والأمية عند (بدلي)

٢ ـ تخبطاتهم مع الآخرين :

(أ) موقف (بكر وحنين) من التاريخ والسيرة

(ب) موقف (بدلي ـ ودرمنغم) في : اسم محمد والمحمدية

(ج) طرح صفات متباينة على الرسول

ثالثا : من تخبطاتهم فى دراساتهم وتعارضها

« فمن الثابت أن المناهج العلمية تؤدي بالباحثين إلى نتائج واحدة في المجالات العلمية التطبيقية ، وإلى نتائج واحدة أو متقاربة في المجالات العلمية الإنسانية النظرية ، و قلما نجد الباحثين يتخبطون في دراساتهم سلباً وإيجاباً ، مدحاً وقدحاً ، حقاً وباطلا ، طالما توحدت طرائقهم في البحث ، أما المستعربون فقد توصلوا في كثير من بحوثهم إلى أشد ما يكون الاختلاف والتعارض ، وأحياناً إلى التناقض .

ولو أنها كانت مبنية على مناهج علمية موضوعية لما اختلفت ولما تعارضت إلا من حيث وجهات النظر في الاجتهاد والفهم »(١)

وقد نوهت بعض المؤلفات الإسلامية بهذا التخبط والتعارض ، وبينت فيما بينته أن ذلك لا يدل على جهالة وتردد فحسب وإنما يكشف عن أغراض المستشرقين في تجهيل الآخرين و ترديدهم وبخاصة أولئك المسلمين المثقفين .

ناهيك عن تخبطات المستشرق مع نفسه فهو يثبت في موضوع شيئاً ثم ينفيه في جانب آخر ، ويأتي بطرف في البحث برأي ثم يعارضه في طرف آخر ، فمرة يثبت أمية الرسول ومرة أخرى

---

(١) من مقال للكاتب ٠

ينفيها ، وحينا يقول : ان القرآن وحي ثم يهدم ذلك ويجعله أعظم صنائعه . .

ومن هذه المؤلفات مثلا : ما يقال عن الإسلام ، وبعض المقالات في كتاب الإسلام والحضارة الإنسانية في الإسلام للعقاد ، وكتاب : السنة ومكانتها : للدكتور مصطفى السباعي ، وكتاب : أوروبا والإسلام ، للدكتور : عبد الحليم محمود ، وكتاب : دفاع عن العقيدة و الشريعة للشيخ محمد الغزالي ، وكتاب : المستشرقون والاسلام للدكتور الهراوي . . ودراسات متفرقة في ظلال القرآن ، والعروة الوثقى ، والمؤيد ، والزهراء ، والتمدن الإسلامي . وغيرها .

ويمكن تصنيف تخبطات المستشرقين إلى نوعين :

١ ــ تخبطاتهم مع أنفسهم .
٢ ــ وتخبطاتهم مع الآخرين .

١ ــ تخبطاتهم مع أنفسهم :

وقد يبدو للباحث المنصف وجهات نظر متغايرة فيرجح بعضها على الأخرى بمرجحات علمية ، ومنطقية ، وقد يعدل عالم محقق عن رأي سابق كان قد قرره بسبب رواية عثر عليها ، أو سند اعتمد عليه ثم يترك رأيه لسبب أقوى ولمرجح أصح ، وهذا أمر معروف لدى علمائنا في القضايا الاجتهادية ، فقد يكون

لبعضهم أكثر من قول وأكثر من رأي ، وكل منها له دليله وحجته ، ولكنه يشير إلى الأصح فيهما والأرجح . أما صنيع بعض المستشرقين فهو التعارض والتخبط الذي لا يقبله البحث ولا الموضوعية . حتى أن هؤلاء أو معظمهم قد رجعوا عن أخطاء وأوهام كانوا قد طرحوها سابقاً ، ولكنهم غير قادرين على تلافي الأخطاء والتخبطات في الوقت الحاضر . يقول (نولدكه) الألماني ، صاحب كتاب : تاريخ القرآن ، الذي تهجم فيه على القرآن والرسول ، واعتمدت آراؤه من قبل مستشرقين آخرين ، حتى عده الباحثون المسلمون من المعادين للإسلام ونبيه ، يقول معتذراً عن أخطاء ارتكبها في شبابه . ان آثار تهور الشباب لا يمكن محوها كلها إلا بإعادة النظر فيما كتب ، أو الابتداء بوضع تآليف جديدة تعفي أثر القديمة ، فإن كثيراً من المسائل التي كنت أعتقد بصحتها قليلا أو كثيراً استبانت لي فيما بعد غير أكيدة . . (١) .

وفي بحوث غير السيرة النبوية تعارضات وتناقضات لا حصر لها سواء كان ذلك في بحوث العقيدة ، أم العبادة ، أم القرآن ، أم الحديث ، وخذ لذلك مثلين : تخبطات (جولد تسير) في كتابه : مذاهب التفسير الإسلامي ، وبخاصة الصفحات : ١٢ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٩٦ ، و قد أشار إلى بعضها مترجمه الدكتور عبد الحليم النجار ، وكتاب : السنة ومكانتها

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ٢١ ـ ٢٥٣

حيث كشف عن تخبطاتهم وتخبطات أولئك العرب الباحثين الذين يسيرون على نهجهم وعلى طرائق بحثهم .

* أما في مجال السيرة النبوية :

(أ) فإن (مرجليوت) كتب كتاباً عن سيدنا محمد ، أتى فيه بكل غريب وباطل ، ومن مزاعمه المضحكة مثلا : أن محمداً صلى الله عليه وسلم سافر إلى مصر ، لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها ، ثم يذكر في مواضع أخرى أن رحلته كانت إلى الشام وحدها مع عمه وبتجارة للسيدة خديجة زوجته . مع أن المستشرق (نولدكه) يرد عليه ويقول : ان محمداً لم يكن يعرف أن المطر قليل في مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر إليها لعلم تلك الحقيقة التي لا تخفى على أحد (١) .

و (مرجليوت) هو الذي يتشكك في اسم الرسول ونسبه ، ويعد ذلك لغزاً من الألغاز التاريخية في صفحة ، ثم يناقض نفسه في الصفحة التالية فيذكر أنه ابن عم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(ب) (ارنست رينان) الذي اشتهر بمقاومته للنصرانية والإسلام معاً . ورأي رينان في النبي محمد متعصب ، فقد وصفه بالخداع والدجل ، ووصفه بالإصلاح والصدق حتى ذكر (بيكافيه) أكبر الباحثين في آثاره : بأنه رجل يقلب أوضاع الأشياء والمسائل ،

(١) أخذ بعضه من حاشية : أوربا والاسلام ص ٩٢

وذلك لاختمار النزعة الصليبية في عقله الباطن ، وقال مؤرخوه : انه أفسد الاستشراق الفرنسي بهذه الآراء (١) .

ورد غوستاف لوبون ، الذي أشار إلى محاضرة (رينان) ووصفها بالتناقض ، وأنه أراد أن يثبت عجز العرب ، وقال (لوبون) : ولكن نزعاته تتناقض بما كان يجيء في الصفحة التي تليها ، فبعد أن قال (رينان) : ان تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمائة سنة ، ذكر أن عدم التسامح مما لا يعرفه الإسلام إلا بعد أن حلت محل العرب شعوب متأخرة كالبربر والترك (٢) .

وبينما هو يعيب على مؤرخي العرب عجزهم عن التأليف والنقد والتحليل والعمق فإنه يذكر أن مزايا السيرة النبوية الدقة والصحة فيقول : حقاً ان لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل .. (٣) .

وقد واجه الدكتور (حكمة هاشم) أستاذ الفلسفة بجامعة الرباط آراء (رينان) ، فقال ان أول ما نريد بيانه هو وهن الموضوعة الأساسية التي اعتمد عليها (رينان) في دراسة السيكولوجية السامية ، وقال : انه في آرائه صدر عن نزعة عرقية باطلة لم تعد ترضى العلم الحديث ، وأن طريقته الاستقرائية

---

(١) نقلا من كتاب الاسلام والثقافة العربية ص ١٦٦

(٢) المصدر السابق بنفس الصفحة

(٣) نقلا من كتاب : أوربا والاسلام ص ٢٠٩

غير مستوفاة ، وقال : ان أكبر ما نأخذه على (رينان) تعسفه في التعميمات التي تتجاوز حدود المقدمات ، والحقيقة انه اجتّراء على تراكيب فضفاضية ، فوقع في مثل ما رمى به أولئك الذين يستهويهم وضع النظريات الكبرى بعد نظرهم نظراً غير مستوعب في كتب اللغة وفي النصوص .. (١) .

(ج) كتاب الرسول : حياة محمد ، الذي ألفه الكولونيل (بودلي) صاحب كتاب : الصحاري المرحة وغيرها من الكتب في الموضوعات الشرقية ، وقد اختار اسم (الرسول) عنواناً لكتابه لأنه الإسم الذي يوصف به محمد في كل نداء للصلاة ، حين يهتف المؤذنون في الآفاق أن (لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله) . . ولا ينتظر القاريء من صاحب كتاب (الرسول) أن يؤمن بالإسلام كما يؤمن به المسلمون لأنه على ما يبدو من كلامه ينظر إلى الأديان جميعاً نظرة المستقل عن الشعائر والمراسم التي هي مثار الخلاف بين دين ودين . إلا أنه حسن النية في تقدير فضائل الرسول والرد على ناقديه من منكري دينه أو منكري جميع الأديان . . (٢) .

ولكن العقاد في وصفه للكتاب لم يلتفت إلى الضلالات الفكرية والشبهات التي يثيرها أثناء فصوله ، كما أنه لم يشر إلى التخبطات التي وقع فيها هو وأمثاله ممن كتبوا في السيرة النبوية .

---

(١) نقلا منكتاب : الاسلام والثقافة العربية ص ١٧٧

(٢) من كتاب الاسلام والحضارة الانسانية ص ١٦٤

ففي فصل (الوحي) الفصل الرابع : يتخبط في ضلالات لا أول لها ولا آخر ، فهو يدعي أنه « لما زال دافع العمل للقوت اليومي وجد محمد فسحة من الوقت ليتأمل فيما اجتمع في رأسه ورأته عيناه » . . ثم يطرح شبهة خطيرة في عقيدة الرسول قبل البعثة فيقول : وكان وزوجه وثنيين بحكم التقاليد يعبدان الله وشركاءه اللات والآلهة الأخرى . . كما أنه يريد أن يبين تأثير الراهب النسطوري وغيره في التأمل والبحث والعقيدة ثم يعاود الشبهة التي يرددها معظم المستشرقين انه « قد انتابته على مر الأيام حالة عصبية في تفكيره أفقدته ما كان له من مرح السنين الخوالي » ولكنه ينفي فيما بعد أن يكون ذلك صرعاً أو علة عصبية ، ثم يتناقض ويتردد في قضية الوحي فيقول : وسواء أكان صرعاً أم ملاريا أو غيبوبة روحية فلن يؤثر ذلك في الوضع شيئاً على الرغم من كل ما قيل في هذا الموضوع ، فما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً . . وينتهي من هذا التردد والتذبذب بإيراد كيفية الوحي المعروفة وإنزال الآيات الأولى من سورة (العلق) ولكنه يتردد مرة أخرى في معرفة الرسول القراءة والكتابة أو في أميته ، مما دفعه إلى القول في الفصل الأخير : وقلما أفكر فيه (الرسول) كمؤلف للقرآن ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظام . . ثم يتعارض مع نفسه حين يصف القرآن بأنه وحي فيقول : « ان القرآن كتاب وحي لم يوضع للمطالعة وتزجية

(١) من كتابه ص ٦٤ (٢) نقله العقاد فى كتابه السابق ص ١٦٦

الفراغ ، وإنما وضع للتبشير والإيحاء والتذكير ، ولن يتذوقه المطالع المتصفح كما يتذوقه السامع المصيخ إليه بظاهر حسه و باطن نفسه لأنه يتطلب الإيمان ، ويتحدث إلى المؤمنين .

٢ ـ تخبطاتهم مع الآخرين :

ان تصنيف المستشرقين إلى معادين الإسلام ونبيه ، ومعتدلين ، والحكم على معظم دراساتهم بالافتراء والتشكيك ، وعلى بعضها الآخر بالإنصاف والقبول ظاهرة من ظواهر تخبطهم وتعارضهم .

وفي جميع الموضوعات التي تناولها المستشرقون كانت مثاراً لخلافات مستحكمة ، واعتراضات قوية ، فما من قضية درست جوانبها دراسة إيجابية مبنية عل أسس علمية ومنهجية إلا ويأتي مستشرق مغرض يحاول أن يهدم تلك الدراسة بأوهالا وضلالات .

وقد تتفق فئة منهم على رأي مشبوه أو قول طاعن ، بناء على مرجع مترجم في السيرة النبوية مثلا ، وتتولد القناعة لديهم بسلامة هذا الرأي والقول ، وينتشر بين المثقفين ولكن دراسة أخرى تعتمد على المراجع العربية الأصيلة تفند الرأي السابق بالحجة والبرهان . فالاختــلاف في الرأي شيء ، وتخبط الباحثين شيء آخر ، ذلك لأن الاختلاف في الرأي يمكن أن يوصل الباحث إلى رأي راجح ، ونتيجة مظنونة أو مستيقنة ، وربما يترك القاريء رهن الشك والتردد ليبحث هو بنفسه عن الفكرة السديدة والنتيجة المتوقعة . أما التخبطات فهي لا تعتمد على دليل ،

ولا تستند إلى وثيقة صحيحة ، ولا تعبّر عن فهم سليم لإنسان يطلب الحقيقة ويتوخاها ، فهي أشبه ما تكون بظواهر انفعالية يصبها في قوالب لفظية براقة ، أو طرائق في البحث تتعلق من ذاتية المستشرق ومن تأثراته الخاصة .

ولتطبيق مبدأ التعارض مثلا . يمكن أن يضعف بعض المحدثين رواية لسبب من الأسباب ، ويحكم عليها آخرون بالصحة لأنهم يقدحون بالدليل سبب الضعف ، فإن لهؤلاء وأولئك قواعد نقدية يمكن أن تزيل التعارض الظاهري .

ويقر بعضهم أن الإسراء والمعراج كان بالروح وحدها ، ويستنتج المحققون أنه كان بالروح والجسد معاً ، فإن لهؤلاء وأولئك نصوصاً يرجعون إليها ، ودلائل خاصة يخضعون لمفاهيمها ، وحينئذ يغلب على الظن أن يزول التعارض بينهما .

أما التخبطات فهي أسلوب تعبيري لا ينطلق من المسئولية العلمية ، ولا من أمانة البحث ، بقدر ما يهدف إلى طرح خصومات وجدال وأغراب تعبر عن أحقاد وضغائن خاصة ، فليست هنا حجة تقرع حجة ، ولا برهان يستبين على برهان ، ولا موقف فكري جلي يوضح موقفاً غامضاً ، وإنما تتناثر آراء متحيزة ، وأقوال متضاربة لا تقوم على أية حقيقة .

وهنا يتساءل الباحث : أين الدليل ؟ وما قيمته العلمية ؟ وما مدى صدقه ومطابقته على موضع النزاع ؟ وما هي مدلولاته

القريبة والبعيدة ، المقصودة وغير المقصودة ؟ فهذا وغيره لا يدخل في دائرة تخبطاتهم ومعارضاتهم .

ذلك وجه واحد من حيث الشكل والمضمون يفرق الاختلاف في الرأي والقول بين العلماء ، والتخبط فيهما ، وبين النقاش الموضوعي ، والنقاش الجدلي المتعصب ، وليس المجال هنا لتفصيل أكثر ، وسأعرض صوراً من تخبطات المستشرقين بعضهم مع بعض :

(أ) تخبطهم في النظرة العامة للتاريخ الإسلامي :

ان (بكر) يقول عن التاريخ الإسلامي ومؤلفيه : ان كتابات العرب عن الفتوحات الإسلامية مفعمة بالأكاذيب والأغلاط خصوصاً في مسألة التاريخ ، وترتيب زمن الحوادث ويعضده (جين) بقوله : ان النبوغ في التاريخ مفقود عند الشعوب الآسيوية ، لأنهم يجهلون قوانين النقد والفلسفة ، وإلى جانب هذه الأقوال المتحيزة المتشبعة بروح الحقد والكراهية يقول (سيد يللو ، وبراون) انه لم يكتب لغير العرب حتى اليوم ان أجادوا في وضع تاريخهم مثل اجادتهم . . (١) .

كما أشار (نللينو) إلى مدى دقة العرب في كتابة التاريخ ، وأنهم اتخذوا لذلك طرقاً بالغة الحيطة : أولاها ذكر السنين سنة

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ١١ــ٧٦٨ لعام١٩٣١

فسنة . . وثانيها : العناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة . . (١) .

ومنها أمور تتحدث عن العوامل في بعثة الرسول وتكوين نفسيته ، وميوله قبل البعثة وأسباب مرضه وموته : عرض لها الدكتور عبد الحليم محمود (٢) ، اقتصر منها على أمرين :

* **أولهما** : ميول محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة : فيرى (دوزي) أن محمداً كان سوداوي المزاج يلتزم الصمت ، ويميل إلى النزهات الطويلة فريداً ، وإلى التأملات المستغرقة في شعاب مكة الموحشة (٣) ويرد القسيس (لامانس) — ضارباً بكل حقيقة عرض الحائط : كلا ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته ، فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة ، وكراهيته المشهورة للنسك (٤) .

ثانيهما : الأسباب في مرض الرسول وموته : فيعتصر (لامانس) خياله حتى يخرج برأي يشفي شيئاً من غليله ضد الإسلام ، ، ضارباً بالمعقول وبالتاريخ وبالحقيقة عرض الحائط ، فيقول : كان لمحمد شهوة قوية جيدة ، وقد كثفت جسمه بالملذات وخدرت أعضاءه فأصبح مهدداً بداء السكتة . وعلى الضد من

---

(١) من كتاب الاسلام والثقافة العربية ص ٣٤٣ مختصرا
(٢) من كتابه : أوربا والاسلام من ص ٨٨ ـ ٩٣
(٣) من كتابه : مسلمو الاندلس ١ـ١٨
(٤) من كتاب : هل كان محمد صادقا ص ١

ذلك تماماً يرى المستشرق (بينيه سُفله) أن رؤى محمد كانــت في بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع . .

ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين . ويعارض هذا وذاك المستشرق (كليمان هيار) فيرى أنه قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوي فخارت قواه بسرعة عظيمة . . (١) . أما القسيس (باردو) فإنه يرى أن محمداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية . . (٢) .

ثم يعلق الدكتور عبد الحليم بعد هذا فيقول : هل نستطيع — بعد أن رأينا ما سبق — أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ما ذكرناه من اختلافهم إنما هو قِليل من كثير ، ويهدم بعضه بعضا . .

(ب) تخبطهم في مسائل تتصل بالسيرة النبوية :

فمنها : ترجمة اسم (محمد — والمحمدية) إلى معان متضاربة :

يقول (بودلي) (٣) : أصبحت لفظة محمد Nammet تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahomerie ثم كلمة Mumery بمعنى (مجون) من نفس المصدر وعلى عبادة الأوثان « المحمدية Mametry يقول (جون سلدن) معقباً (٤) : فصارت محمد

---

(١) من كتابه تاريخ العرب ١ــ١٨١
(٢) علامات محمد : ما هي ، وما قيمتها ص ١٧١
(٣) المصدر السابق ١٧ (٤) المصدر السابق ١٨

والمحمدية أسماء بغيضة في حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) يحرمون الأوثان في ديانتهم . . ويرد (بودلي) صفة المحمدية ويقول : ولم يستعمل محمد وأتباعه أبداً عبارة « محمدي » أو « المحمدية » فعلى الرغم من توقيرهم لزعيمهم ، فقد كان محمد المخلص يعرض عن هذه التسمية دواماً ، وأن التعريف الوحيد الذي ينطبق على من يدين بالدين الذي أسسه محمد هو : « المسلم من يسلم نفسه لمشيئة الله » ثم يقول : كانت رغبات محمد بسيطة ، فكان الزهد فيها أمراً ميسوراً . . ثم يعدد صفاته الإنسانية وقيادته ونبوته ويقول في الفصل الأخير عن « أن النجاح الذي ازدحمت به أيام محمد » مما يبعد عنه ذلك التخبط ، ولهذا فإن (درمنغم) (١) كان يعمد إلى كتابة محمد هكذا : Mohomet ، لا هكذا : Mohammad ، معللا : وما كنت إلا لأعدل بعد عشرين سنة عن هذه التهجية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر ، وتشعر بروحه .

وقد أشرت إلى تخبطات المستشرقين في اسم الرسول : من أمثال : (حتى ، وبدلي ، ودر منغم) الآنف الذكر وكيف أنهم اعتمدوا على رواية في (السيرة الحلبية) بادية الوهن من جهة ولا يفهم منها ان اسم الرسول قد تبدل وتغير .

وكان أمثال هؤلاء المستشرقين قد تخبطوا أيضاً في (صفة

---

(١) حياة محمد ص ١٢

الرحمن) لله تعالى ، حتى أدى بهم إلى الوثنية والشرك بأن هناك إلهين : الله ، والرحمن ، ولكن آخرين منهم بينوا أن مزية الإسلام العظمى هو التوحيد الذي اتسم بالوضوح والبساطة والنقاء . .

(ح) ومنها طرح صفات متباينة عن الرسول :

يقول (بودلي) (١) : أن (جورج سيل) الذي ترجم القرآن ترجمة طيبة في أوائل القرن الثامن عشر ، والذي كان من الواجب أن يعرف محمداً معرفة أفضل صدر ترجمته بالآتي : أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى في التجارة تنازعت فيما بينها على أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس (هوميروس) ، وأن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقي فكر رجال ذلك العصر ، ولكن لما فحصت شخصية محمد فحصاً دقيقاً كانت الصورة فظيعة معيبة ، حتى أنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان ، ان أي قطر ليخجل من انجاب هذا المجرم ؟ ! ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير ؟ ! دواماً حتى أنهم لم يدعوا المكان الذي تنفس فيه أول ما تنفس يحيطه أية ريبة أو غموض .

وعلى الرغم من وقاحة (سيل) وتجرده من الفكر المنهجي والأسلوب الموضوعي فإن ما يدينه علمياً وضوح شخصية الرسول وجلاء أبعادها بدءاً من ولادته حتى وفاته ، وهو اعتراف غير

---

(١) في كتابه : الرسول حياة محمد ١٥

مقصود من مستشرق مغرض حقود . يقول (بودلي) (١) ففي سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض . . وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلي ، وقد وضح بعد رسالته ، برواية مبهمة لمبشر غامض أو مشوش فبين أيدينا كتاب معاصر فريد في أصالته وفي سلامته ، ولم يستطع أن يشك في صحته كما أنزل أي شك جدي .

ولكن (سيل) لم يجرؤ على الافتراء على الرسول إلا بعد أن قرأ وتعرف على راعي (كنيسة نيوانجلند) حين قال : كيف استطاع مثل هذا المجرم ؟ ! مثل هذا المخاتل الكبير ؟ ! أن يخلق ديانة يدين بها اليوم ثلاثمائة مليون مؤمن ، وبدلا من تؤخذ في الزوال كما هو حادث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ويزداد معتنقوها يوماً بعد يوم . انه الحقد والاثارة والتغريب .

ويقول (بودلي) في الفصل الأخير : ان النجاح الذي ازدحمت به أيام محمد الأخيرة على الأرض يجعل المرء ينسى الناحية المنزلية . . وانتشار الإسلام العالمي اليوم ، كل أولئك يعطي صورة أوضح عن هذا الرجل خلال حياته .

---

(١) المصدر السابق ١١

رابعا : التعريف ببعض مؤلفاتهم

١ ـ كتاب : محمد رسول الله :

تأليف آتين دينه وسليمان بن ابراهيم ، وترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد عبد الحليم محمود ، وقد طبع عدة مرات مع تعديلات طفيفة في هذه الطبعات ومنها طبعة ١٩٥٨م في ٤٠٧ صفحة ومنها طبعة في ٣٦٧ صفحة بما فيها المقدمة والفهرس ، دار المعارف ١٩٦٦م . ويشتمل الكتاب غير مقدمة المترجمين على (مقدمة) للمؤلف نفسه وعلى عشرة فصول ، والفصل العاشر منه يبحث في : وثبة الإسلام ، ومستقبله ، وسبب تدهور المسلمين ، والتعصب ،وتعدد الزوجات ، والحجاب .. أما الخاتمة فتتحدث عن : الإسلام والعصر الحديث ، والمسلمون ومساعدة فرنسا ، وتطلع أوروبا إلى الروحانية ، ومن مميزات الإسلام . وقد شمل مقدمة طويلة للمترجمين تقع في ٥٨ صفحة بقلم عبد الحليم محمود تعرض فيها لحياة : ناصر الدين دينيه وآرائه في الفن والدين ، ونظرته للأناجيل الحالية وشكه بها ، ثم التجائه إلى العقل الذي يعجز عن تفسير ما وراء الطبيعة ، ثم دخوله في الإسلام ، كما ذكر أسماء مستشرقين آخرين أسلم بعضهم وأنصف الإسلام آخرون ، ثم ذكر موقف(دينهمن المستشرقين) ومناهجهم التأثرية ، وبين أن الافتتان بآرائهم

لا أساس له ، ويختم المترجم مقدمته بمقوله (لدينه) من كتابه « الشرق كما يراه الغرب » تحت عنوان : نصائح للمستشرقين . . والكتاب حافل بموضوعات السيرة البارزة وأحداثها المشهورة ، وفيه ردود على شبهات مستشرقين مغرضين وإيضاح للتصورات الإسلامية على العموم لقضية الوحي ، وخبر الافك ، وزواج الرسول ، وعالمية الإسلام . . ومحمد (صلى الله عليه وسلم) لم يؤلف القرآن . .

وقدم لمنهجه في التأليف قوله : وقد اعتمدنا في استمداد عناصرها (السيرة) على أقدم المؤلفين : كابن هشام وابن سعد وسواهما ، ثم على مؤرخ من المحدثين هو علي برهان الحلبي ، الذي حشد في كتابه المسمى (السيرة الحلبية) مختلف الروايات لأشهر المؤرخين . . إلى أن يقول . . يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا بين دفتي هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغربية المتغالية التي تعمل على هدم السنة ، والتي شغف بها حباً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو باغ من الرأي أو غريب ، ثم يتابع كلامه فيقول : . . . وقد اقتصرنا من الروايات ما يبدو لنا أنها الأكثر دلالة لكي نضعها في موضعها المناسب ، مستعينين في ذلك بالأخبار التي جمعناها من محادثاتنا الطويلة مع الحجاج في أماكن الحجاز المقدسة . . (١) . ومما يؤخذ على كتابه :

(١) المقدمة : ٦١

(أ) أبطال المعجزات النبوية المادية التي يعدها من الخوارق ، واكتفاؤه بالمعجزة الفكرية الكبرى وهي : القرآن ، فهو يقول : والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً هو الوحيد الذي استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها ، وعلى بلاغة القرآن الإلهية ، وأن في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق . .

(ب) التزامه أحياناً بالأساطير بقصد التأثير والحيوية ، يقول (٢) أننا مع ذلك ، قد التزمنا أن لا نطرح جانباً تلك القصص التي تحمل طابع الأساطير الخيالية ، فالأساطير ، وعلى الخصوص الشرقي منها ، وسيلة من وسائل التعبير لا تضارع ، انها تصيغ الأشياء والحوادث بألوان قوية لا تمحى ، وتضفي على الحديث حيوية شديدة التأثير . .

(ج) عرض بعض قضايا السيرة وأحداثها بصور فنية خيالية . خذ مثلا حديثه عن (الأذان) يقول : ألمح الآن شعاعاً وردياً يتدفق في الأفق ، والنجوم يبهت لونها ، ويطرق مسمعي لحن موسيقي ، يتردد صداه في هدأة الفجر « الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله . . ثم الحديث عن (أداء الصلاة) ، ومثله (أوقات الصلاة) حيث يقول : في كل يوم كلما غيرت الشمس

---

(١) المقدمة : ٦٢ (٢) المقدمة : ٦٣

ألوان ضوئها ، في فجرها الارجواني ، وفي ظهيرتها الملتهبة . .

(د) التحليل الشخصي والنفسي : وهو مزية في دراسة الأحوال النفسية وتفسير الحوادث الإنسانية ، والغوص في منطلقات الذات ودوافعها ، وهو عيب حين يوحي أن استنتاجاته هي الحقيقة في النفس وخاصة في الحوار الذي كان يدور بين رجال السيرة ، مثلا يقول . . وما لبث أحد متعقبي الأثر أن وجد في وادي تهامة صبياً جالساً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها :

فقال له : (من أنت يا غلام) ؟ قال « أنا محمد بن عبد الله ».. ثم الحوار بين آمنة أم الرسول وحليمة مرضعه . . (١) .

ومع هذا فالكتاب . . وهو الذي يصوغ الأحداث التاريخية بصور أدبية فنية وخيالية أحياناً — يدل على موهبة فنية إلى معارفه المتسلسلة بمنهج منطقي ، كما يعده العلماء المحققون نموذجاً من التأليف المنصف لحياة الرسول ويكنون لمؤلفيه احترامهم وثقتهم .

وما أجمل قولهما المتواضع في آخر الكتاب : اللهم كن رؤوفاً بمؤلفيه ، ولا تؤاخذهما على تلك الجرأة الطائشة التي دفعتهما — في سعيهما إلى الخير — إلى محاولة تناول موضوع واسع كهذا مع ضآلة معلوماتهما . ويا عليم اغفر لهما ما عسى أن يكونا قد وقعا فيه — بسبب جهلهما — من أخطاء في سيرة جليلة كسيرة رسولك سيدنا محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه و بركاته و على آله وصحبه آمين .

---

(٢) ص ٨٧

وآتين دينه ، ترجم له الدكتور عبد الحليم محمود بإسهاب وتفصيل (١)،وفي (المستشرقون) (٢) : دينه ١٨٦١م — ١٩٢٦م ، تعلم في فرنسا وقصد الجزائر فكان يقضي في بلدة (بو سعادة) نصف السنة من كل عام ، وابتنى بها قبراً ، و أشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين ١٩٢٧م وحج إلى بيت الله الحرام ١٩٢٨م،ومن آثاره ، حياة العرب ، وحياة الصحراء ، وأشعة من نور الإسلام ، و الشرق في نظر الغرب .

ولم نترجم للمؤلف العربي المسلم سليمان بن ابراهيم الذي شارك (دينه) في تأليفه لأن ذلك خارج عن نطاق الموضوع .

٢ — كتاب : الرسول ، حياة محمد :

تأليف : ر . ف ، بودلي الانكليزي (لندن ١٩٤٦م) ترجمة محمد محمد فرج ، عبد الحميد جوده السحار ١٩٤٥م ، ويقع في ٤٣٩ صفحة مع المقدمتين ، وليس للمترجمين إلا تعليقات قليلة . والكتاب يضم أربعة وعشرين فصلا وخاتمة بدءاً من الفصل الأول : مكة ، ونهاية بالفصل الأخير ، محمد في قومه ، أما الخاتمة فتتحدث عن شيء من سير الخلفاء الراشدين وزوجات وسراري الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعترف المؤلف بمساعدة فيليب حتي والدكتور خير الله في كثير من المعلومات .

وأخيراً وضع إلى جانب الفهرس العام كشفاً متمماً بأسماء

---

(١) فى المقدمة ، وفى كتابه : اوربا والاسلام (٢) ١ـ٢٣٥

الرجال والنساء الذين يظهرون دواماً أو أحياناً في حياة رسول الله ، صلي الله عليه وسلم ويقع في ٢٩ صفحة .

ويقول المؤلف في مقدمته : . . . ثم ذهبت لأعيش بين عرب الصحراء لما كنت ضجراً من التعقيدات التافهة التي جاءت عقب الحرب الأولى ، وقد بقيت معهم سبع سنين . . وسمعت عن محمد الرجل الذي وحد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة وجعلهم دعامة امبراطورية من أعظم امبراطوريات العالم قوة ، وسمعت عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذي حوّل الوثنيين وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين يؤمنون بإله واحد وباليقين وبالموت والبعث في الحياة الأخرى . .

١ ــ ثم يتحدث عن عنوان كتابه فيقول : فإن أناساً كثيرين يطلقون على محمد لفظة The Prophet وأن كلمة (نبي) العربية لا تدل على معنى Prophet المقصودة في المعنى اليوناني ، وأن هذه اللفظة غالباً ما تستعمل على الرغم من أنها ليست صواباً . ان لقب محمد المعروف « رسول الله » .

٢ ــ ويقول في خطته في الكتاب : حاولت أن أترجم الحوار العربي حرفياً وببساطة ، وقد كان الشعر والبيان فوق طاقتي ، واعتمدت في الآيات القرآنية ، على ترجمات (مارمادوك وردويل) ، ويعلق المترجمان على ترجمة القرآن بالقول : كانت ترجمة القرآن باهتة لا روعة فيها وإن كانت تؤدي المعنى اللفظي .

٣ ــ ثم يتحدث عن روايات غير ثابتة تنسب إلى العظماء فيقول : وفي الحقيقة أنه من الصعب في بعض الأحيان أن نقول كيف أصبحت الحقيقة حقيقة وكيف صارت الرواية رواية ، زيادة على ذلك فإن هناك في جميع الديانات كثيراً من الأمور التي ليست رواية فقط بل خرافة . . ولكنه يعزف عن الخرافة كما يقول : إلا أني ما كنت لأشوه نسق الجملة بإضافة (وقيل) حينما أكون متأكداً مما إذا كنت قد ابتعدت عن التاريخ . . ولا ينسي المؤلف أن يذكر مساعده : فيليب حتى والدكتور خير الله اللذين راجعا أصل الكتاب . .

والمؤلف (بودلي) تعلم في مدرسة القرية ثم تلقى دروساً خاصة والتحق بالجيش ١٩٠٨م وعمل في جيش العراق ثم في شرقي الأردن (١٩٢٢م) ومستشاراً مالياً لسلطنة مسقط (١٩٢٤م) وكان أول من قطع الربع الخالي وكشف عن أسراره المجهولة (١٩٣٠ ــ ١٩٣١م) ثم استعفى من خدمة الحكومة وانقطع إلى الدراسة والكتابة ومن آثاره : الرسول : حياة محمد السابق ، الذي يقول عنه العقيقي (١) . .

٤ ــ وقد آمن في مقدمته بسلامة العقيدة الإسلامية وضل من بعد في تفسير الزكاة والجنة والنار والقضاء والقدر . .

٥ ــ وكذلك إظهاره شخصية الرسول بتدبير الظروف والحوادث ، فيقول (٢) : وليس هناك جديد عن محمد في هذه

---

(١) المستشرقون ٢ــ٥٢٩ (٢) الرسول حياة محمد : ٢٠

السيرة ،وأن الجديد هو إظهار كيف أن الظروف جعلت محمداً يقوم بأشياء ظلت غامضة على الغربيين . . ثم يقول . . لذلك قصصت محاسنه وعيوبه دون تحيز ، وإني أحس أن محمداً عظيم العظمة الكافية ليتحمل أخطاءه كما يتحمل فضائله . .

٣ ــ كتاب : حياة محمد :

تأليف واشنجتون أرفنج ، وترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي وقد ألفه كما جاء في مقدمته ١٨٤٩م ويقع في ٣٢٠ صفحة بما فيها مقدمة المترجم والمؤلف وطبع مترجماً في دار المعارف ١٩٦٠م، ويضم الكتاب سبعة وثلاثين فصلا عرضت لأهم أحداث السيرة النبوية ، وعرض أثناءها (أسس العقيدة الإسلامية) الفصل الثامن وخاتمتها أيضاً : دراسة العقيدة الإسلامية .

١ ــ ويقول المؤلف في مقدمته : وقد استمدت معظم هذه الدراسات من المصادر الأسبانية، أو الترجمة التي قام بها Gangnir لكتاب المؤرخ العربي أبي الفداء . . واعتمد أيضاً على مكتبة John Murray الخاصة ، واستفاد من آراء جوستاف ويل ، إلى جانب بعض الروايات والأحاديث كما جاءت في الأدب العربي ، ولم يهتم بذكر أسماء المصادر والتراجم في الحواشي .

٢ ــ يقول المترجم : وابتعد (ارفنج) عن القدح والتعريض والألفاظ النابية والروح الصليبية التي تجدها في مؤلفات بعض

المستشرقين مثل : ميور ، وسبرنجر ، ودرمنغم ، ولامنس ، وفيل ، وغيرهم . .

٣ ــ ثم يقول : ولا آخذ على (ارفنج) إلا أمرين : أولهما : طريقة تناوله مسألة تعدد زوجات الرسول . حقاً انه لم ينتقد أو يعرض ، لكنه حاول أن يبرز تعدد زواج الرسول وسلط عليه كثيراً من الأضواء ، في عناوين فصوله أو متنها . . ثم يلتمس له عذره ، فيقول : انه نظر إلى هذه المسألة نظرة رجل مسيحي عاش في أمريكا وأوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم يقول : كما آخذ على (ارفنج) عطفه أحياناً على اليهود ، رغم أنه يعدد مواقف الغدر والخيانة التي وقفوها من الرسول ، وقد قمنا بواجبنا نحو الرد على آراء المؤلف .

٤ ــ وهكذا تستبين طريقة الكاتب في سيرة الرسول وفي مصادره التاريخية وغير التاريخية . وهو بهذا يسلك منهجاً واحداً أو متقارباً مع مناهج المستشرقين المؤرخين الآخرين . وهؤلاء على اعتدالهم لا يمكنهم أن يمدوا الفكر العربي الإسلامي ولا حقائق التاريخ بمعلومات أو آراء مرجعية مقبولة ، ولكنهم يضعون دراساتهم موضع النقد وأحياناً موضع الرد بما تشتمل عليه من التهافت ، وتحكم الخيال ، والاستناد إلى المراجع الخاصة غير الموثوقة عربية وأجنبية .

والمؤرخ (واشنجتون ارفنج) أمريكي ولد في نيويورك ١٨٨٣ ــ ١٨٥٩م ، وكانت رحلته إلى أوروبا للعلاج مدة عامين

قد أكسبته ثقافة عامة حيث طاف بمكتباتها ومتاحفها وأصبح وزيراً مفوضاً في أسبانيا في المدة بين ١٨٤٢ — ١٨٤٦م واطلع على تراث الحضارة العربية الزاهرة ثم كتب عن الرسول وعن الخلفاء الراشدين . .

(الخاتمـــة) :

لقد استقطبت حياة الرسول العظيمة ، وأعماله المجيدة ، وآثارها المتنامية عدداً وفيراً من المستشرقين المؤرخين ، حتى أولئك الذين لا يعنيهم الموضوع التاريخي من قريب أو بعيد كان تناولهم شخصية الرسول قد التمسوا فيها بحثاً دينياً ، وقضية فكرية متميزة .

وتمكنت أبعاد الشخصية النبوية العالمية أن تشد إليها دراسات استشراقية عالمية فردية وجماعية وتغوص في أعماق أبعادها ، وتعالج تأثراتها وتأثيراتها الإنسانية على نسق متكامل وطابع خاص .

ومع جميع تلك الدراسات فإن أهدافهم ومنطلقاتهم قد تنوعت وتحكمت في سبر الشخصية النبوية وطرائق دراستها ، وتباين استنتاجاتها ، لا استثنى منهم أولئك الذين صنفوا دراساتهم ضمن اتجاه واحد ، فإنهم كانوا يتنازعون في بحث معالمها ويتدارسون أبعادها بكيفيات متعددة وأحياناً متعارضة .

وعلى الرغم من أنني أبنت عن شيء من أهدافهم ومنطلقاتهم ونتائج كل منها ، وتضاربها وتعارضها في نقاط كثيرة فإن

الإلحاح عليها يؤكد العمل النقدي . ويركز مفاهيمه في أذهان المثقفين .

فمن الجدير بالذكر أن المستشرقين المؤرخين والدارسين المحللين ، ينزعون من مناهج تاريخية تحليلية متقاربة ، جمعوا فيها بين الموضوعية والتأثرية ، وبين العلمية والذاتية ، حتّى أن أفكاراً كثيرة وأحداثاً معينة قد رتبت وفسرت ونظمت ضمن روابط واحدة تظهر تشابهاً واضحاً فيما بينها حيناً ، وتضارباً مثيراً حيناً آخر .

١ ـ فمن ظواهر الدراسة :

(أ) أنها حرمت الثقافة العربية والإنسانية كثيراً من الحقائق الفكرية للنبوة المحمدية التي كان بإمكان المستشرق الدارس أن يكشف عنها ، وينبه إلى خطورتها وقيمتها .

(ب) كما أنها حاولت أن تبهم مآثر ناصعة من السيرة النبوية ، وتغطي وجوهاً قد احتوت فضائل إنسانية واستوعبت خصائص قيادية على حين أن جهود علمائنا المؤرخين قد أبروزا معانيها وأوضحوا سماتها .

(ج) بل وربما شوهوا شيئاً من خصائص السيرة ، وطعنوا بأحلى صفاتها ، وعابوا أعظم أخلاقها بدافع من التشفي والحقد والتطرف ، وباسلوب يتناوب بين الطلاوة والاقذاع .

٢ — ومن ظواهر الدارسين :

(أ) إنها استطاعت أن تغري ضعاف الثقافة والمفتونين بمناهجهم وأعمالهم ، فعملت على تقبل آرائهم ونظراتهم بشغف يضعف عندهم قوة النقد والتمييز ، ودفعهم إلى التمسك بها على أنها مسلمات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وهي فوق النقد ، وأعلى من مستوى التجريح .

(ب) بل إن عمالقة الفكر الإسلامي (أو كما يسمونهم بذلك) اتخذوا مناهجهم ، وتأثروا بمواقفهم وسلكوا مسلكهم ، وقدموا أعمالهم إلى العالم العربي والإسلامي بمنهج استغرابي ، في التشريع والتاريخ والأدب والاجتماع .

(ج) ودفعت جمهرة عريضة من المحققين المسلمين إلى ترجمة بعض آثارهم ، وذلك للإفادة من بعض طرقهم في البحث الذي ينحو منحى التحليل والتكامل والموازنة والترديد ، وللتعلق أو للرد على معان وشبهات عرضت لها بأسلوب علمي موضوعي .

ولم أعثر على كاتب جريء ، ولا عالم محقق — إلا وحذر من دراساتهم ، ونبه إلى أخطارها الفكرية وآثارها السلبية ، يستوي في ذلك المسلمون منهم وغير المسلمين .

فقد عقدت فصول إضافية في كتب المستشرقين أنفسهم تحذر من تطرف بعضهم ، وترد من مطاعنهم ، وتصحح من أخطائهم التي قد يقعون هم أنفسهم في مثلها أو غيرها .

وأنشئت مجلات أو بحوث تعني ببيان الموقف التاريخي والشرعي للقضايا الاستشراقية التي طرحت سابقاً والتي ما زال الجديد فيها يطرح في كل عصر . ومنها : أن محمد أسد ـ وكان اسمه ليوبولد فايس ـ أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) الذي أسلم أيضاً مجلة الثقافة الإسلامية في (حيدر آباد الدكن) عام ١٩٢٧م .

وقبلها وبعدها مجلات فكرية إسلامية بدءاً من العروة الوثقى ومروراً بالأنصار والزهراء والمؤيد والأزهر والفتح واللواء والمنار ، والإسلام ، ومنبر الإسلام ، والعرفان والمتحدث الإسلامي وغيرها(١) ساهمت في بيان الزيف الاستشراقي ووضعت ـ على وجه العموم الحقيقة في نصابها ، وتحملت في ذلك مسؤولياتها .

وعلى مستوى الدراسات الجامعية العالمية أرى من المناسب أن أطلع القاريء على جملة . من ظواهر الدراسات الاستشراقية العامة ومنها :

١ ـ سوء الظن والفهم بكل ما يتصل بالإسلام وأهدافه ومقاصده .

٢ ـ الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته ، والحكم عليه من خلال ما يعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب : الاسلام والثقافة العربيـــــة ص ٧٠ وما بعد .

٣ ـ إخضاع النصوص التي يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص .

٤ ـ تحريفهم النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً ، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف .

٥ ـ تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلا من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويصححون ما ينقله (الدميري) في كتابه (الحيوان) ويكذبون ما يرويه (مالك) في (الموطأ) ، كل ذلك انسياقاً مع الهوى ، وانحرافاً عن الحق (١) .

ولكن بينما نجد جل بحوث المستشرقين التاريخية تتخبط في متاهات وتناقضات الدراسات المتحيزة والنقد السلبي . وتتحكم فيها الأهواء ويسودها التطرف والأحقاد تقترب قلة من المؤلفات التاريخية من مجالات التحقيق التاريخي حين تستمد معارضها من المصادر العربية الأصيلة ، وتستلهم إيحاءاتها من دراسات محايدة حديثة .

وحينئذ يستطيع المستشرق المعتدل أن يتبوأ مكانه المرموق في ميادين الثقافة العربية والإنسانية ، ومع هؤلاء وأولئك ما تزال فئة متزايدة من المسلمين : علماء ومثقفين محققين ترصد أعمالهم وتزنها بميزان الحق والعدل ، فيتميز الخبيث من الطيب ، وتثرى الثقافة فكراً ومنهجاً ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

---

(١) من كتاب السنة : الدكتور السباعى ص ٣٦١

مراجع ومؤلفات ودراسات عن السيرة

يجدر أن أنبه إلى الملاحظات التالية :

١ ــ إن القائمة التالية تحتوي على مراجع موثوقة وعلى مؤلفات ودراسات معتدلة ومشبوهة وخطرة .

٢ ــ لم أعتمد في بحثي على ما احتوته هذه القائمة ، وإنما اخترت منها نقاطاً تتعلق بالسيرة النبوية .

٣ ــ حاولت ــ قدر الاستطاعة ــ أن أسرد هنا معظم ما كتب عن الرسول إن لم يكن كله ، ولا يعني هذا أبداً الموافقة على الآراء الاستشراقية والاستغرابية التي تضمنتها .

* المراجع والمؤلفات بالعربية :

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ الحديث النبوي :

(أ) صحيح البخاري .
(ب) صحيح مسلم .
(ج) سنن الترمذي .
(د) ابن ماجه .
(هـ) النسائي .
(و) أبو داود .
(ز) مسند أحمد .
(ح) فتح الباري .

٣ ـ تفسير : جامع البيان في تفسير القرآن :
محمد بن جرير الطبري

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

٥ ـ أخبار الرسل والملوك محمد بن جرير الطبري

٦ ـ البداية والنهاية لابن كثير

٧ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير

٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام

٩ ـ زاد المعـــاد لابن قيم الجوزية

١٠ ـ السنة ومكانتها الدكتور مصطفى السباعي

١١ ـ التبشير والاستعمار الدكتور عمر فروخ وزميله

١٢ ـ الإسلام والثقافة الغربية أنور الجندي

١٣ ـ شبهات التغريب أنور الجندي

١٤ ـ فقه السيرة الدكتور سعيد رمضان البوطي

١٥ ـ دفاع عن العقيدة والشريعة محمد الغزالي

١٦ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار
الدكتور محمد البهي

١٧ ـ المستشرقون والإسلام الدكتور حسن الهراوي

١٨ ـ حيـــاة محمد الدكتور محمد حسين هيكل

١٩ ــ الإسلام والحضارة العربية
محمد كرد علي
٢٠ ــ رائد التّراثا ربي ترجمة الدكتور صلاح المنجد
٢١ ــ حقائق الإسلام العقـــاد
٢٢ ــ عبقرية محمد العقـــاد
٢٣ ــ مطلع النـــور العقـــاد
٢٤ ــ الإسلام والحضارة الإنسانية العقاد
٢٥ ــ ما يقال عن الإسلام العقـــاد
٢٦ ــ فقه السيرة محمد الغزالي
٢٧ ــ غرائب الغرب محمد كرد علي
٢٨ ــ السيرة النبوية محمد غنيم
٢٩ ــ السيرة النبوية (دروس وعبر)
د. مصطفى السباعي
٣٠ ــ حياة محمد ورسالته مولانا محمد علي ،
ت منير البعلبكي
٣١ ــ محمد النبي العربي عمر أبو النصر
٣٢ ــ سيدنا محمد رسول الله عبد الفتاح الإمام
٣٣ ــ محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى
عبد الفتاح الإمام

٣٤ ـ محمد صلى الله عليه وسلم (المشكلات وجوابها)
عبد الفتاح الإمام

٣٥ ـ محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل
د. محمد أحمد جاد المولى

٣٦ ـ محمد والقرآن — كاظم الشيخ سليمان آل نوح

٣٧ ـ محمد صلى الله عليه وسلم القائد
محمد عبد الفتاح إبراهيم

٣٨ ـ محمد صلى الله عليه وسلم — عبد المنعم مصطفى

٣٩ ـ محمد وعصره — عمر أبو النصر

٤٠ ـ محمد رسول الله — الدكتور جميل سلطان

٤١ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين
محمد شريف الأحمدي

٤٢ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين
محمد الخضر حسين

٤٣ ـ محمد رسول الله — محمد علي قراعة

٤٤ ـ محمد رسول الله — محمد رضا

٤٥ ـ محمد الرسالة والرسول — نظمي لوقا

٤٦ ـ صورة من حياة الرسول — أمين دويدار

٤٧ ـ عصر النبي وبيئته قبل البعثة — محمد عزه دروزه

٤٨ ـ عظمة محمد صلى الله عليه وسلم
عبد الغني حمادة

٤٩ ـ المدائح السنية في شمائل الذات المحمدية
الأمير شكيب أرسلان

٥٠ ـ نقد كتاب « حياة محمد » لهيكل
عبد الله بن علي النجدي

٥١ ـ شخصية محمد الدكتور محمد شلبي

٥٢ ـ الرسالة المحمدية سليمان الندوي

٥٣ ـ الرسول صلى الله عليه وسلم
محمد المتولي نجيب

٥٤ ـ مع المصطفى في عصر البعث الدكتورة بنت الشاطيء

٥٥ ـ نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله
الدكتور لبيب الرياشي

٥٦ ـ الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله
محمد ماضي أبو العزائم

٥٧ ـ إنشقاق القمر عبد الله الفيشاوي

٥٨ ـ هل محمد عبقري مصلح أم نبي مرسل
محمد شيخاني

٥٩ ـ حياة محمد جان جانيه

٦٠ ــ سيرة النبي العربي واشنطن أرفنج
٦١ ــ سيرة محمد شبرنجر ونولدكه
٦٢ ــ محمد الرجل ورسالته جودفرواد ديمومين
٦٣ ــ محمد حياته وعقيدته أندراي
٦٤ ــ من هو محمد أندراي
٦٥ ــ الرسول ، حياة محمد بدلي
٦٦ ــ حياة محمد أميل در منغم
٦٧ ــ الرسول محمد آتين دينه
٦٨ ــ الحج إلى بيت الله الحرام آتين دينه
٦٩ ــ أشعة خاصة بنور الإسلام آتين دينه
٧٠ ــ الشرق كما يراه الغرب آتين دينه
٧١ ــ محمد رسول الهدى والرحمة
توماس كارليل
٧٢ ــ تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام
يوليوس ولهوزن
٧٣ ــ قصة الحضارة ول ديوارنت
٧٤ ــ دراسة في التاريخ آرنولد توينبي
٧٥ ــ الإسلام سوانح وخطواطر
هنري دي كاستر

٧٦ ـ الشرق والغرب رينه جينو

٧٧ ـ مسلمو الأندلس دوزي

٧٨ ـ مهد الإسلام لامانس

٧٩ ـ هل كان محمد صادقاً ؟ لامانس

٨٠ ـ محمد جريم

٨١ ـ تاريخ الإسلام مرجليوث

٨٢ ـ تاريخ العرب كليمان هوار

٨٣ ـ علامات محمد باردو

٨٤ ـ محمد وانتهاء العالم كازانوفا

٨٥ ـ الإسلام الكونت دي كاستر

٨٦ ـ أوربا والإسلام الدكتور عبد الحليم محمود

٨٧ ـ الاستشراق والبابوات يوسف جبرا

٨٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان

٨٩ ـ الآداب العربية في القرن التاسع عشر لويس شيخو

٩٠ ـ تاريخ العرب الدكتور فيليب حتى

٩١ ـ النقد التحليلي : مقدمة للأمير شكيب أرسلان

٩٢ ـ تاريخ الإسلام موير

٩٣ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان

٩٤ ـ باتولوجيا الإسلام واشنتجون أرفنج

٩٥ ـ الشرق الأوسط في العصر الإسلامي
سيدني فيشر

٩٦ ـ الإسلام والغرب نورمان دانيال

٩٧ ـ الاستعراب في الاتحاد السوفيتي
تعريب محمد المعصراني

٩٨ ـ الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد

٩٩ ـ تراث الإسلام توماس وجماعته

٢ ـ التراجم ودوائر المعارف :

١ ـ المستشرقون: الدكتور نجيب العقيقي .

٢ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي .

٣ ـ الاستعراب في الاتحاد السوفيتي .

٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية : عدد من المستشرقين .

٥ ـ دائرة المعارف البريطانية : عدد من الكتاب .

٦ ـ فهارس المكتبة العربية في الخافقين : يوسف أسعد داغر

٧ ـ المستشرقون البريطانيون :

٨ ـ المبشرون والمستشرقون : الدكتور محمد البهي .

٣ ـ المجـلات :

١ ـ الهلال ٢٩ : ٣٥٥ ـ ٤٥٨ : العلوم الشرقية في مدارس أوربا : فيليب حتى .

٢ ـ الغرب : ٦ ، عدد ١٢ : ٢٠٦ ـ الاستعراب والمستعربون : عبد الحميد الدجيلي .

٣ ـ الثقافة : عدد ٣٧/١٨ : المستشرقون ورسالة الرسول : محمد أحمد الغمراوي .

٤ ـ المكشوف : سنة ٣ ، الذوق الأدبي عند المستشرقين : محمد روحي فيصل .

٥ ـ محمد كرد علي : علم المشرقيات : المقتبس ٤ : ٦٣٢ .

محمد كرد علي : المستشرقون : المقتبس : ٨ : ٤٠١ .

تاريخ علم الشرقيات العربية في أوربا وأمريكا : مجلة المجمع العربي : ٣ : ٣٠ : و ٥٤ و ٨٦ و ٢٥٧.

محمد كرد علي : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية : مجلة المجمع : ٤٣٣/٧–٤٥٦ (محاضرة) .

محمد كرد علي : أغراض المستشرقين : الرسالة عدد ١١٤ : ١٤٧٧ .

٦ ــ الأب : أنستاس ماري الكرملي : أغلاط المستشرقين : مجلة المجمع : ١٤ : ٢٣٥ ــ ٢٤٧ .

٧ ــ أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر (المستشرقون والنهضة) مجلة الكلية : ١٢ : ٤٢٥ .

٨ ــ الدكتور حسن الهراوي : المستشرقون وضررهم على الإسلام ــ مجلة المعرفة : ٢ عدد ٦ و ٨ .

٩ ــ رأيان متعارضان في نفع المستشرقين وضررهم : حسن الهراوي : ضررهم أكثر من نفعهم ، وزكي مبارك : نفعهم أكثر من ضررهم : الهلال : ٤٢ : ٣٢١ .

٤ ـ المؤلفات والدراسات بالاجنبية :

1. The spirit of Islam.
   By Sayed Ameen Aly
2. A Child's History of Th World.
   By V.M. Hillyer
3. The Life of Muhammad.
   By Muir, Sir W. (Edinburgh 1923)
4. Muhammad, his life, and his Faith.
   By Tor Andrae (London 1938)
5. The Mohammadan Dynasties.
   By Lane poople, s. (London 1894)
6. The Arabs in History.
   By Bernard Lewis (London 1950). Chapters (I and II)
7. Muhammed's Ascension. Bevan
8. The Muslim : A.J. Wensinch
9. Encyclopedia Britanica. V. 15, p. 640 - 643
10. Mohammed : H. Grimme
11. Muhammeds Liv : F. Buhl.
12. Mohammed & the Rise of Islam : D.S. Margolouth
13. Die Person Muhammed J.T. Andrae
14. Mohammed The Man and his Faith
15. L'Islam Impression et etudes
16. Muhammad at Mecca : W. Montgomery
17. La vie de Mohamet par Emil Derannalli dell Islam
18. Das Leben und die Lehre des Mohammad : Sprenger

19. La vie de Mohamet : Dermenghan
20. Mohamet et la Tradition Islamique : Dermenghan
21. Le Problem de Mohamet : Rblachere
22. Le Prophete de l'Islam : M. Hamidullah
23. Encyclopedia International : V. 12, p. 193 - 195
24. The Origin of Islam in Its Christian Environment : Bell Richard
25. Muhammad at Mecca : Wat W.M.
26. Muhammad at Medina : Wat W.M.
27. Muhammad Prophet and Statesman
28. The Prophet of the Desert. By Khaled Gooda
29. Mohammed. By Morgoliouth
30. Acta Orient : A.J. Wensinek
31. Koranische Wintersuchungen : J. Horovitz
32. Z.D.M.G. Neue Folge : K. Arther
33. Jewish proper Names and Derivatives In The Koran : R. Paret
34. Die Him : B. Schriche.

الفهـــرس

موضوعات البحث الصفحة

الصفحة

موضوعات البحث